بكر أبو بكر

في الزمن الواقع بإمكانكم أن تطيروا



مجموعة قصصية

في الزمن الواقع

بإمكانكم أن تطيروا !

مجموعة قصصية

بكر أبوبكر

في الزمن الواقع بإمكانكم أن تطيروا !

مجموعة قصصية

2003

• في الزمن الواقع بإمكانكم أن تطيروا (مجموعة قصصية)

• بكر أبو بكر

• الطبعة العربية الأولى : الإصدار الأول 2003 .

• جميع الحقوق محفوظة للمؤلف .

أشرف على الطباعة والنشر:

دار الشروق للنشر والتوزيع

المركز الرئيسي : هاتف : 4618190 / 4618191 / 4624321 فاكس : 4610065

ص.ب : 926463 الرمز البريدي : 11110 عمان - الاردن

■ التنضيد والاخراج الداخلي وتصميم الغلاف وفرز الألوان و الأفلام :

دائرة الإنتاج / دار الشروق للنشر والتوزيع

هاتف : 4618190/1 فاكس 4610065 / ص.ب . 926463 عمان (11110) الأردن

Email : shorokjo@nol.com.jo

إهداء

إلى الذين أشرقوا يوم نذير
ولبسوا الأكفان في طريق العزة
ولم يلتفتوا للخلف
فحملوا ديارهم والبسمة والنور
واستوفوا من المحتل حقوقهم
وغرّبوا
فقبل التراب طُهر أجسادهم
وأرواحهم الأبدية
شهداء

بكر أبو بكر
فلسطين-بيرزيت 2003

بسم الله الرحمن الرحيم

• تقديم

وأنا أقف على عتبة هذه المجموعة القصصية، لا أجد بدأ من التأكيد على أن فكر الكاتب يشكل روح ما يكتب، فكتابة بلا فكر كجسد بلا روح. وها نحن نلج الى فناء مدرسة قصصية تنبض بالحياة التي استمدتها من روح وقلب المفكر والأديب والمهندس بكر أبو بكر. لقد اقتربت روح الكاتب الى درجة يستطيع القارئ من خلال قراءة ما يكتبه بكر أن يلمسها، وفتح قلبه على مصراعيه ليتيح لكل قارىء أن يرى الأحداث على حقيقتها دونما تشويه، فهي قصص وتأريخ وفكر ونمط جديد يشف عن الأشياء فنراها بشكلها الكامل اللامنقوص.

لقد قرأت الكثير من قصص هذه المجموعة فرادى قبل أن أقرأها مجتمعة، وذلك من خلال البريد الإلكتروني الذي طوّعه الكاتب لنقل نبض الطفل والمرأة والمنتفض الفلسطيني، ولنقل آخر كلمات الشهداء ووصاياهم، ولنقل رسائل الأشلاء والنتف والخلايا التي تطايرت والكل يتابعها على شاشات التلفاز كالرسوم المتحركة، من خلال مقالات وقصص صاغها الخوف ونسجتها المعاناة، ففاض بها يراع الكاتب، وسرعان ما تحولت الى نبضات أفصحت عنها شاشات الكمبيوتر الدامعة لفرط الألم والحسرة وضيق ذات اليد.

عندما يكتب بكر أبو بكر ترى في قصصه خاصة وفي كتاباته عامة مهندساً بارعاً يبدأ بحفر الأساسات ثم يقيم بناء القصة متماسكاً لا يهمه فيما بعد أي المواد استخدم، فمرة ترى أساسات فقط اضطر الكاتب الى ردمها فوق شهيد لم تسعف الظروف أحداً لحفر قبر له، ومرة ترى بناء بني على عجل قبل حلول منع التجوال، فالتقطه كما يلتقط المهرولون الى منازلهم ما تيسر من الخبز والماء والحاجيات خوفاً من طول فترات الإغلاق، وفي قصة أخرى ترى بناء رائعاً قضى في بنائه الكاتب وقتاً طويلاً وهو لا يجد مفراً من المكوث في البيت بستائره المغلقة

بناء على توجيهات مكبرات الصوت في الخارج، وتارة ترى بناء شامخاً يعبر عن شموخ الإنسان الذي آثر أن يحيا بكرامة، وتارة ..... وتارة.....وتارة.....

لقد كتب بكر أبو بكر للجميع، فهو يدخل القارىء واحة قصصية تحاكي كل الأذواق، فلك أن تشتم ما شئت، وأن تمعن النظر الى ما شئت، وأن تقطف ما شئت، وذلك في ثورة أخرى على تقاليد المجموعات القصصية التي يكتبها كاتبها وهو مصر أن يجعلك تقرأها جميعاً، فقصصه تعجبك في هذه المجموعة وتجعلك تشعر بالنشوة وتحتسي الجرعة المركزة التي تفوق قراءة آلاف القصص.

إن أجمل ما في كتابات بكر أبو بكر أنها تنقل لك المشهد بالصوت والصورة، حيث ترى الصوت في السطور والصورة بين السطور، بدلا من المشهد المتحرك الناطق المعبر الذي كنت تقضي وقتاً طويلاً بين صفحات الجرائد وبجانب المذياع وأمام شاشة التلفاز لتجميعه. إنها مجموعة قصصية وأشياء أخرى حقاً تستحق التمعن والقراءة مراراً، فالعمق في بعضها يحتاج الى اصطحاب أكثر من أسطوانة من الأكسجين لتصل إليه بالرغم من البساطة في التعبير والسلاسة في الكلمات.

إننا نقف في هذه المجموعة أمام قاص أسس لنفسه مدرسته الخاصة، فبنى لها جدراناً من المعاناة التي تشف عن معاناة الكثيرين، فهو لا يكتب قصصاً فحسب بل يترجم ما تعجز شخوص قصصه عن الإفصاح عنه، وفور دخولك فناء تلك المدرسة تجد ما لا تجده في المدارس الأخرى، فالشهداء أحياء يتسامرون، والمرافق تبتسم لك في سخرية وبلا مبالاة، والحجارة تبادلك السلام، والألم مقبوض عليه مصلوب، والتقهقر والانهزام قبض عليهما وأودعا في قفص لا يستطيعان كسر قضبانه.

سوف أخرج عن المألوف في تقديم هذه المجموعة التي أعتبرها إضافة فريدة الى أدب القصة المعاصر، تماماً كخروج كاتبنا عن النمطية في كتابة القصة. فلن أخوض في الحديث عن المحتوى ، وإنما أترك لك سيدتي القارئة ولك سيدي القارىء العنان لتحلقوا في أجوائها وتعيشوا لحظات المعاناة مع كاتبها ولتغوصوا الى أعماقها لتلتقطوا حبات اللؤلؤ التي عزّت في زمن كالذي نعيش.

الشاعر/ مصدق السرطاوي

• اريج الجيالي في عمّان

اصطحبت أطفالها الأربعة وزوجها الى أحد المطاعم، ففي المدينة مطاعم كثيرة، وعروض مغرية... والاختيار بينها يخضع لما تعرضه من نوعية تنشد الجودة وأسعار تتلاءم مع مختلف طبقات المجتمع إضافة لما تقدمه من محفزات عبر الدعاية كالهدايا والألعاب، او حديثا خصم قرش او قرشين لصالح الانتفاضة المباركة !

على باب المطعم الضخم الذي غطى زجاج واجهته رسومات وألوان وأشكال ونصوص دعائية تقول: اشترِ شطيرة (همبرجر) وخذ الثانية مجانا، اشترِ شطيرتين و(الكولا) مجانا ! حينها ابتسمت الزوجة فهي من أكلة اللحوم المدمنين،... وانطلقت الى داخل المطعم... بينما وقف الأطفال الأربعة جامدين ثم عابسين!.. نظرت الأم جوارها ثم خلفها فلم تجد أحدا من أطفالها ...لمحتهم من خلف زجاج المطعم... إنهم ما زالوا واقفين خارج المطعم؟! فأشارت لهم بيدها أن ادخلوا ...لم يتحرك منهم أحد؟! استغربت فخرجت غاضبة وصاحت: ما لكم لا تدخلون والمطعم هذا ما اعتدنا التردد عليه دوما ؟! ألم تعجبكم العروض ؟ أم ان (الهمبرجر) أصبحت (كخة) ؟!

كان والدهم قد ركن سيارته في الساحة القريبة وجاء ينظر الحدث والحديث... تحدث الأول وقال: إن هذا المطعم وأمثاله لم عد يعجبنا ؟

وقالت الثانية: ولن نعود للأكل فيه أبدا بعد ذلك ؟

وقالت الثالثة: أصلا نحن لا نحب اللحوم المبردة هذه ؟

وقال الأصغر: دعونا نعود لمطعم العم أبو احمد الذي يقدم الحمص والفلافل والشاورما العربية ؟

نظرت أمهم بحنق وقالت: ما هذا أهو إضراب أم مظاهرة أم ماذا ؟

قال الأول: نعم هو إضراب ؟

قالت الأم بعصبية: ولماذا يا فصيح ماذا حصل ؟

قال أصغرهم:إن هذا المطعم أمريكي ؟

قالت بنفاد صبر: وماذا في ذلك ؟

قالت الثانية: وبدعم صهيوني ؟!

ثم أضافت: وله فروع في المستعمرات المنغرسة في قلب ورئته وطننا فلسطين حيث يسوم اليهود شعبنا هناك سوء العذاب ؟

قالت الأم: هالله هالله حولتم الأكل الى سياسة، ما شاء الله ؟

قالت الثالثة:إنه بأكلنا في هذا المطعم كأننا نأكل لحوم إخواننا في فلسطين؟؟

أدار الأصغر ظهره وسار باتجاه والده والسيارة، كادت أمهم تصفعهم في الشارع ... إلا أنها آثرت أن تؤدبهم بشكل مبتكر وعلى طريقتها فاشترت لنفسها شطيرتين؟؟! وعادت بهم وزوجها الصامت الى البيت جوعى ...فرح الاطفال كثيرا، واعتبروا أنهم حققوا نصرا ولو جزئيا، وضاقت أمهم ذرعا من كثرة رفضهم الذي بدا يظهر عليهم منذ بداية الانتفاضة ... يرفضون اللباس والأطعمة والمشروبات والأقلام ...الخ التي يشكون أن لإسرائيل علاقة بها من قريب أو بعيد .

أريج الجبالي فتاة في ريعان الصبا كانت تجلس في بيتها المكون من أربع طبقات ...قدمت ابنة عمتها أحلام وكلمتها فصعدتا معا الى سُطح البناية يتناجين ويبثان بعضهما قليلا من الاشواق والأحلام الصغيرة، وقمن معا بلم الغسيل المنشور ...إنه عمل روتيني وليس عملا حربيا، إنه عمل تقوم به النسوة في بلادنا كل يوم ! وهل في ذلك مشكلة ! نعم إنه كذلك في هذه الأيام وغيره من الأعمال الصغيرة المعتادة، إنه وإنه تسبب مشاكل للعيون الذئبية والقلوب الحجرية والأيادي الدموية، إنه وإنها تسبب مشكلة كبيرة أن يعيش الناس حياتهم العادية في فلسطين يفرحون ويحزنون ويحبون ويتألمون ويرسمون الأمل بعرض

المحيط وعلو السماء، لأن العدو ينكمش بفرح الأطفال ويسّود وجهه حين تستبشر الصبايا ...

في الخليل حيث تقطن عائلتا أريج وأحلام يقع المنزل ويقع السطح وينتشر الأريج والأحلام على بعد ثلاثين مترا هوائيا ممّا يسمى بـ (مستعمرة حجاي) اليهودية المليئة بالقوم الإرهابيين، اعداء الفرح والعشق والمستقبل .

في الساعة الخامسة إلا ربعا صعدت الفتاتان الى السطح بينما انشغل أفراد الأسرة بإعداد وجبة الإفطار من صيام النوافل ...قامت قوات الغدر والاحتلال الإسرائيلي بإطلاق الرصاص من رشاشات عيار 500 ملم باتجاه المنزل ... احتضنت أحلام ابنة عمها، وحاولتا الهرب من سيل الرصاص المنهمر باتجاه مطلع الدرج، ولكن الإرهاب لا يفرق بين طفل وعجوز وشاب وفتاة ...اخترقت رصاصة واحدة قلبا نقيا فتيا أبيض، قلب أريج وشطرته نصفين ...نصف بقي في الخليل ونصف انتقل معها حيث المعراج الى سدرة المنتهى!

في عمان جلست مع أبنائها الأربعة ...تأكل شطائر (الهمبرجر) التي جلبتها لها وحدها دون اطفالها المنتفضين كعقاب على عصيانهم ...وخبر الشهيدة أريج الجبالي يطرق أسماع الأسرة المقيمة في عمان ...رب الأسرة المرهق الصامت وزوجته، وأطفالهما الأربعة المنتفضين ...حاولت الأم أن تدير مؤشر المذياع بعيدا عن الخبر... إلا أن تجهم وجوه الأطفال الأربعة وهمهمتهم وهم الذين ما فتئوا يتابعون أخبار الانتفاضة بلهفة، ونشرة إثر نشرة في المرئي والمسموع، جعلها تغير رأيها ...وتنقض على ما بين يديها من طعام ...

كانت أريج قد قفزت في قلوب الأطفال وفي عين أصغرهم سنا التي فاضت دمعا... قام أكبرهم وصلى ركعتين، وقرأت أختاه الفاتحة جهرا على روح الشهيدة... وصرخت الأم في وجه زوجها: أين الفستان الجديد الذي وعدتني به؟!

■ ■ ■

• الحاقد يزهو !

كان يلعب مع أقرانه، يخطفون منه الكرة ويركضون بعيدا، وعندما يعود في اليوم الثاني مع كرة جديدة يعودون ليخطفوها منه ويتضاحكون وهم يفرون بعيدا. كان الأطفال من أقران ماجد قد مهدوا مساحة خالية من الأرض بعيدا عن بيوت القرية المتراصة و أعلنوها ملعبا لكرة اليد، حيث نصبوا شبكة ربطوها على ساريتين متقابلتين .

تحولت استكانة ماجد وقلة حيلته، وامتعاضه ومغالبته الدائمة لدموعه وهو يرى أقرانه يستضعفونه ويخطفون كرته -وهو لا يملك الا الوقوف صامتا كسيرا خائفا- تحولت الى حقد دفين . حاول في أحيان قليلة أن يتقرب من أقرانه ولكنه بقلة همته وضعق استجاباته معهم وعدم رغبته مشاركة الجميع ألعابهم كل ذلك قد جعل منه طفلا منبوذا بين أنداده، فتنامت فيه مشاعر الكره والحقد والرغبة في الانتقام .

في بيت أبو ماجد كانت تعيش أسرة ريفية بسيطة، بسيطة في أكلها، بسيطة في ملبسها، بسيطة في إمكانياتها المادية، إلا أنها لم تكن تبخل على ماجد في تعليمه وفي رعايته ... لقد تحولت نوازعه السلبية كرها لأسرته، كما هو كرهٌ لمحيطه الخارجي، ولم يستطع أن يظهر ذلك إلا من خلال تمزيق ملابسه بيديه كلما اشتد ضيقه وكلما تفاقمت أزمته النفسية بين الفترة والأخرى... لقد كانت مشاعره السلبية المتعاظمة تجاه أقرانه وعدم قدرته على مجاراتهم تنقلب على أهله الذين يقفون حائرين من ملابسه الممزقة التي يدعي أن الأطفال في الحارة قد مزقوها له وهو يعود باكيا شاكيا، و فرحا !

في كثير من الأحيان كان أبو ماجد يلتقي الأطفال أو آباء الأطفال ويتعارك معهم ويصرخ في وجوههم لما فعلوه بابنه لكنه يعود بنتيجة مغايرة هي أن لا شأن لهم بما يحصل لابنه ! يواجه الأطفال فيبكون مصرين على أقوالهم جماعات ووحدانا ... عاش الوالد حائرا، وعاش ماجد نزقا بما يحققه من

تعاطف أهله الدائم، و اكتشافه للطريقة السرية في الانتقام من أقرانه الذين غدا يكرههم ويحقد عليهم . لقد كان يمزق ملابسه بيديه كلما تأزم او تألم !.

لم يستطع ماجد أن يكمل دراسته فخرج من الصف العاشر وكان خروجه من المدرسة يوم عيد عنده لأنه كان يعاني الأمرين في صفه، من تهكم زملائه وسكوت أساتذته، وتراكم كراهيته وحقده... كان لعبد الحق- الذي يكبر ماجد بسنوات والمفصول من المدرسة- المتدين تأثير كبير على شخصية ماجد، لا سيما وأن عبد الحق يحفظ بعضا من آيات القرآن الكريم دون تدبر و يمتلك الصوت الجهوري والقدرة على التحريض والتقريع، فلم يفلح أن يفهم من دينه الرحمة والتسامح، ولا التقارب والمحبة بل فهم ان يراكم الغضب، ويشحن النفوس بطاقة عالية ضد الذنوب والمذنبين وضد الخطايا والخاطئين، ولم يميز باسلوبه هذا بين ما يغتفر ولا يغفر فالكل مذنب او الكل مخطئ، ويجب أن يتجه التحريض والشحن ضد الفعل وفاعله، وفي ذلك اسفاف وإسراف، وفي ذلك تشدد وتطرف كما طفق يردد استاذه قبل فصله، وهو -أي عبد الحق- لا يلقي له بالا... بل وأشد من ذلك اخذ يشحن التلاميذ ضد الأستاذ متهما إياه بما ليس فيه: إنه كاذب، منافق، مارق، واخيرا بالطبع هو كافر ... لم يحتمل عبد الحق مخالفيه الرأي وهكذا أصبح ماجد، والتف حولهما مجموعة من التلاميذ المداومين او المنقطعين واتخذوا لهم مسجدا يقرأون فيه القرآن وينتقون من التفاسير أغلظها وأشدها ويلقونها في وجه مخالفيهم من عباد الله الذين أسموهم بالطبع منافقين وجهلة، على اعتبار انهم وحدهم يشكلون امة الإسلام والفائزون الذين سيمكّنون في الأرض ؟!

صعد ماجد، الخائف التائه الحاقد الذي كبر فيه كل ذلك مع نضجه وطول لحيته وتحريض عبد الحق، صعد المنبر وخطب في أهل قريته يوم الجمعة فشتم وقرّع، اتهم وشدد، هدد بالويل والثبور، بالنار وجهنم لكل مرتكب صغيرة وكبيرة، ولكل مخالف له حتى في الرأي الاجتماعي أو السياسي ... لقد تيقن ماجد كما تيقن عبد الحق أنهما خلاصة الإيمان وعصارة التقوى ومبعث النور، لا يخطئون

ولا يرتكبون سيئة لذا فهم مقدسون وجماعتهم وآراؤهم ؟؟! وكيف لا وهم حزب الله والقول الفصل والحق الصراح والإسلام الحقيقي وحزب الله هم الغالبون ؟!

من على المنبر استفاق أهل القرية على شيخ جديد ينظّر لحزب، فئة، دون غيرها من فئات المسلمين وفي ذلك استغلال لمنبر المسلمين جميعا بما يفرقهم ويشتت جهدهم ...خاصة وأن الوقت كان وقت تجمع حثيث وتوحد لازم والانتفاضة المباركة متواصلة في كل مكان وكل بيت ضد الاحتلال البغيض في فلسطين .

لم يكن الشيخ ماجد -كما أصبح يلقب لاحقا- إلا بذرة تفريق وفتنة، بذرة تشدد وتطرف نمت في بيئة كراهية وحقد سقتها تعاليم عبد الحق وما هو على الحق وجماعته الصغيرة، استمر في خطبته ولم يبق احدا إلا وطاله اتهاما، باستثنائه هو وجماعته .... تململ البعض من الحضور وصاحوا فيه ان وحد الله يا شيخ ، اتق الله يا فلان، فتمادى في غيه ومن له أن يقاطع خطيبا يوم الجمعة ؟! ... وكانت خطبة مشحونة لم تخلُ من الصراخ والضجيج رغم وجود المصداح أمام الخطيب ؟!

صلى الشيخ ماجد بالحضور .... وما ظنوا صلاتهم ستنتهي لطول الركوع والسجود ... علت الهمهمات وبانت الانتقادات لماجد وخطبته وصلاته، وترك المصلون المسجد غير آسفين ... أنهى والده صلاته وهو يبكي ويتساءل ماذا فعل له ؟! لقد رباه أحسن تربية، ولم يبخل عليه مع ضعف امكانياته ! ومع ذلك يصعد المنبر ويسب ويشتم ويطال والده شيء من ذلك وبشكل مباشر ! لم يفهم الأب معنى تمكن الحقد والشحن والتطرف في أذهان الصبية استغلالا لمشاعر الدين النبيلة، وتأويلها بما يخدم نوازع السيطرة والتسلط لدى حفنة ضلت الطريق، وقد تضل غيرها، فأخذ يردد أن لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

خرج الشيخ ماجد من المسجد مزهواً، فرحا، متثاقلا، يحف به عدد من التلاميذ الصغار الذين تجذبهم الشدة والتشدد، واللسان اللاذع، ومظاهر القوة

والعنفوان وخاصة متى ما ارتبطت بالموروث الشعبي والديني ... وعلى أبواب المراهقة، ولحية طويلة مخضبة و دشداشة قصيرة وعباءة سوداء ونظارة قاتمة!... نظر ماجد الى جوار المسجد فإذ ببعض الصبية يلعبون كرة اليد بخفة ومرح ... فجاشت الذكريات وتراكضت عليه الصور وامتلأ ذهنه المريض بالنوازع الشيطانية ... طفل ضعيف منبوذ تائه حاقد ...ثم زعيم، تقدم نحو الصبية واختطف منهم الكرة ثم بقرها وقذف بها بعيدا، وصرخ في وجوه الأطفال مهددا إياهم بالسعير والشر المستطير في جهنم، وعاد مزهوا فرحا متثاقلا يحف به عدد من المضللين الصغار.

■ ■ ■

• الزمن يعود في المنصور!

رن جرس الهاتف فرد على النداء قائلا: ألو، ليجيبه الصوت من الطرف الآخر: ألو، هل هذه غرفة سميح الرفيدي؟.. أجاب: نعم، ولكنه غير موجود، فقالت: ومن أنت، عفوا قال: انا صديقه وزميله في الغرفة قالت: حمدا لله .. قال نعم، ماذا؟ قالت: هل سميح هو نفسه الذي كان يعمل منذ 21 عاما في صحيفة (الرأي العام) الكويتية .. قال: نعم، هو بعينه قالت: حمدا لله أوليس هو القادم مع الوفد الفلسطيني الى المريد قال: نعم قالت الحمد لله قال: ما بالك تحمدين الله كثيرا؟ قالت: إنه زميلي الذي لم أره منذ زمن طويل، وأحببت أن أتيقن انه هو وليس من تشابه اسماء او خطأ.

أغلقت الخط واخذ منها الرقم واعدا ان يعطيه لزميله فور وصوله الفندق او الغرفة ولكنها حتى لحظة وصوله كانت قد اتصلت اكثر من خمس مرات ... رغم صعوبة الخط كما قالت ... إنصاف وهذا اسمها كانت محررة في القسم الثقافي للجريدة وكان سميح رئيسا لهذا القسم لأكثر من عشر سنين، ومن المعلوم ان صحف الخليج وخاصة الصحف الكويتية كانت تزهو وتفخر بأنها عنوان للثقافة

العربية وتستضيف عشرات الأقلام العربية المتألقة التي كان من بينها سميح وانصاف .. قبل ان تفرق حرب الخليج الثانية شمل الأمة ويقع الخطأ...الكبير.

خالي الذهن .. كيف يكون الذهن ابيض، دون اعباء ودون اثقال ودون رواسب، انها عملية ليست بالبسيطة ومهمة صعبة ان يصل الانسان بذهنه الى مرحلة الخلو، اي المرحلة التي يصبح فيها دماغه صفحة بيضاء، لقد تعلم سميح اثر نكبات متوالية اصابته ان ينتزع نفسه من محيطه اللزج، وبيئته القاسية، وظروفه الصعبة عبر سلسلة متصلة من العمليات الموصوفة بالتأمل.... يقوم بتفريغ دماغه كليا مما علق به في الصباح واثناء العمل، ويمنع تداخل الذكريات مع مشاغل اليوم والبارحة، ويضبط عنان فكره دائم البحث عن الغد، ويلزم عقله التوقف عن التحاث وبذل الجهد والتحقق من الأسباب واختراق الأليف وابراز الجديد من النتائج .. إنه يوقف عمل دماغه ايقافا تاما فلا تخيل ولا تفكر ولا تذكر ولا ربط ولا انتزاع، وما كان له ان يصل لهذه المرحلة الا بعد عنت موصول وعناء كبير، ثم يقفز في صفحته البيضاء ليرسم ما هو خارج عن حقيقة وضعه البائس، فتارة يسبح في الكون بين الأجرام وتاره يطير مع اليراعات، ومرة يصطاد الغزلان مع السباع وأخرى يربح مليونا مع جورج قرداحي، ومره يقطع بحر المانش في دقائق .. لقد أتقن آلية توقيف الذهن وافراغة ثم ملئه بما يخفف الهموم وينشد قليلا من السعادة في وطن الكوارث والصبر والألم والصمود، في فلسطين التي عاد لها في عام 1991.

كان سميح يدخل الفندق مساء خالي الذهن تماما من مشاغل يوم طويل قضاه في لقاءات وندوات هي ضمن برنامج المربد الشعري السابع عشر في بغداد، وما ان اقترب من المصعد حتى قابلته من كانت احدى تأملاته السعيدة .. لقد وجد نفسه وجها لوجه أمام انصاف بعد اعوام مليئة بالحروب والنكبات والكوارث، هي عرفته وهو كاد ينكرها لولا ابتسامة .. ما زالت حيية، ميزتها منذ التقت عيونهما ذات نهار في رواق جريدة (الرأي العام) في الكويت .

لم أتوقعك واقعا نابضا حتى في افضل تأملاتي، هكذا بادرها سميح بالحديث، فقالت: ولكني لم اكف التفكير بك، وفي الرواق الذي جمعنا وفي المكتب والزملاء والأقلام والأوراق وصورة الحصان الأبيض على يمين مكتبك وصورة أولادك على يسارك، لم أكف النظر في عمودك اليومي، وشاي الصباح الذي كان يجمعنا في القسم عندك في التاسعة صباح كل يوم ... قاتل الله الفراق وقاتل الله الكوارث، هكذا قال سميح، وفتح باب المصعد فدعاها للدخول، وكأنهما يدخلان مكتبه هناك.

في الخامسة والعشرين من عمرها دخلت بستان الصحافة وطافت بين أزاهير الثقافة والسياسة والفن وشؤون المرأة الى ان استقر بها المقام في الصفحة الثقافية فتاة جامحة كخيول نجد، فتية نابضة بالحياة والحركة، عراقية، ماجدة، ذات رأي وشجن، ذات جلد وعراك لم تدع يوما في عملها الصحفي الا وملأته شجارا، فهي لا تقتنع بسهولة ولا يرضيها القليل، دوما تسعى للإجادة، للأفضل، فكان مسؤول القسم في أخذ ورد وشد وجذب معها، ما ان تعلو الأصوات في الجريدة حتى يدرك جميع الزملاء ان انصاف لا بد ان تكون في الموضوع وسميح فكل منهما لا يستسلم للآخر بسهولة ... عراقية وفلسطيني.

في المصعد ضحك الاثنان عاليا حتى جفل الآخرون ! لقد ضحكا من منظر الشيب الذي غطى جزءاً من شعر كل منهما، وضحكا مستعيدين بالنظرات أيام التجاذب والعراك والقفشات، وضحكا وهما قد اصبحا عائلتين كلٌّ في بلد، وضحكا من تأملاتهما وأحلامهما، وضحكا من نظرات الوقيعة التي كان الزملاء ينظرون لهما بها .. زميلان في مكان عمل واحد تقاسما الهموم والمشاكل والأعباء والعمل والشجون، ألا يكفي ذلك ام كان من المفترض ان تكون للعلاقة توابع تبدأ بالكأس وتنتهي بالسرير كما هي العقول الملبدة بالفضيحة والرذيلة والمجون ..

سارا في رواق الطابق الثاني من فندق المنصور ذي النجوم الخمسة سابقا والذي اضطر ان يتخلى عن جميع نجومه مع وطء الحصار الظالم والجائر على دجلة والفرات وشعب الرافدين .. شعب العراق العظيم. ما ان فتح زميل باب الغرفة حتى عرف من القادم زميلة سميح وعرفته من اجابته على هاتفها الأول بعد اثني عشر عاما، وتساؤلها الأول عن ذكرى غابت لتعود ثرية، عفية لتعود حياة.

اجتمع الثلاثة واحد ينصت وربما يتأمل من بعيد، والمتأمل يستعيد الذكريات مع زميلة ماض لن يعود، والزميلة قد خط الزمن في عينيها وخديها وجبينها أثرا لا يمحى من الشقاء واليأس وفي يديها برزت عروق، وفي كفيها بانت خشونة، وفي صوتها ظهرت اوجاع، وفي جسدها حلت أسقام وفي روحها كسرت وردة وانطفأ عنفوان.

من عينيك أغرف ألم السنين، وفي روحك العالية قذفت نار الأمس، وتركت لك جسدي سرجا لآهات البلبل الحزين ... كانت تقرأ شيئا من اشعارها الجديدة، وسميح يستمع ملقيا رأسه على كفه في مكتبة بمدينة غزة، ويترك لذكرياته ان تتدافع وتتزاحم حتى لم يعد لمنفذها الجبري ان يتسع... فسالت دمعة وتوارت آهة وبقي الانشداد للحلم والتأمل في شخصيته قريناً، لكن عينيه قالت الكثير .

قالت: لقد عاد الزمن -وإن برهة- مثقلا بالكثير، فالحياة وهم والذكرى حياة.

■ ■ ■

• الطريق إلى الباب الخفي

فكرت مليا، وقبل أن أفكر كنت قد مللت، مللتك تطرق رأسي وتلزمني المسير، تدفعني بيديك القاسيتين إلى مفترق صعب لا يصله إلا متهور أو جسور، لذلك كان لمللي منك ومن طرقاتك الصاخبة المدوية أن فكرت في زيارتك في معقلك في بيتك وهنا تكمن الصعوبة ؟! فكيف سأطرق بابك أو أقرع في فؤادك الجرس وفي مستقرّك لا أجراس تدوي ولا أبواب تدق ولا نوافذ تفتح !

حزمت أمري وأفطرت ما تيسر مما وضعَتْه لي من غبَنْتُ نفسي بالنظر فوق رأسها، قليل من الجبن وكسرة خبز وإبريق شاي تطوف فيه الأوراق وأرق.. دلقَت الكوب على حجري والليالي فلم أشرب ولم أنم ولم آكل.... حزمْتُ أمري وأفطرت ما تيسر مما لم تضعه لي، مما اختزنته في كياني، وألقيت عصا الترحال إلى مدينة حيث لا قمر ولا نجوم .

كان الدرب طويل والجوع ينحر الأفكار القليلة المتبقية في ذهني، وحِدّة العطش تكاد تجعل من جسمي كتلة حجر باردة ولكنني مشيت... لم أعد الآن أدري كم من الساعات قضيت وكم من الأيام والليالي قذفتُ وراء ظهري، ولكن مظاهر المسير الطويل بدت واضحة: تشقق رجلاي ونزْفُ قدماي وجفاف حلقي وزيغ عينيّ ورماد قلبي وانحلال أفكاري وهبوط جسمي... حتى كدت أبرخ مرارا كالجمل العليل .

في الطريق من حقل الزيتون إلى أشواك الصبار الملتفة على خاصرة الحقل شاهدت نحلة أسيرة شد وثاقها إلى شجرة سرو طويلة كانت تئن وتئز وتشكو، ولما كان لي من الوقت ما لم أعلم فقد توقفت هنيهة وأنصتّ إليها . كانت النحلة تناجي ربها وتدعوه قائلة: يا من بعزته تقسم الخلائق، وبرفعته يحيا الأموات وبجلاله يولد القمر، يا من يميت العفيّ ويطيل عمر العليل ويعذب الصابر ويمتحن المؤمن ويعطي البخيل ويوسع على الشقيّ لحكمة منه، يا من في عبادته تعددت الطرق وحارت في آلائه العقول، ودانت له الأباعد والأقارب، وخشعت

لقوته الجوامد قبل البشر، إليك أشكو عجزي ولهفتي، إليك أشكو فقري وقلة حيلتي، إليك أركن وما لغيرك يركن العبد الشكور ... خلصني من سجني وأرجعني لفضاء لا يحد حركة قلبي وجناحيّ .

نظرتُ إليها بعينيّ الكليلتين فجَزَعَت وكادت تفقد اتزانها، وخشوعها إلا ان عجزي عن الحركة وضعف لساني من التعب كانا ظاهرين على ما يبدو لها ... عادت النحلة تلتقط أنفاسا تقطعت على الدعاء وقالت تفقه سؤالي: ألا أدلك على طريقك الضائع وتفك أسري ؟ ألا أعيد لك قوتك وتخلصني من عجزي؟... أومأتُ برأسي الذي كاد ينفصل عن جسدي، فتقدمتُ إليها لأفك القيود ففزعت وأردفت أن ليس هكذا ! وإنما عليك أن تفك قيدي بالبحر!

ما هذه الورطة هكذا حدثت نفسي ...ألم يكن يكفيني سوء حالي وضعف جسمي وانكسار إرادتي وانحلال فكري لأفك نحلة أسيرة بالبحر ؟! تركتها وتقدمت بالمسير بين جملة من الأشواك التي جعلت من خطواتي خطا أحمر متصلا فآنست بحرا عن بعد، رباه ماهذا البحر في هذا المكان، وهل يستقيم أن يكون بهذه الشاكلة ؟! كان البحر محمولا على أكتاف أربعة رجال غلاظ عتاة يطوفون به بين قمة جبلين يتباعدان تارة فيتسع البحر ويتقاربان تارة فيتحول إلى قطرة ؟!... فبانت الفكرة في نور بهائها: كيف تأخذ البحر قطرة في وعاء.

مررت في بطن الوادي بعجوز تخيط ثوبا مالحا وترشقه بطين الأرض... سلمت عليها فردت السلام بأحسن منه، قامت تمد يدها على بعد أرُبعة جبال وسبع تلال فألقت في حجري بقارورة كنعانية جميلة من تراث الأجداد وعادت تخيط ثوبا من النرجس أعلمتني أنه مصنوع خصيصا لأصحاب البيوت ذات الأبواب والشبابيك المعدومة!

ألقيت حصاني الذي كنت أحمله على كتفيّ أرضا واعتذرت منه قلة ذوقي لضعف حالي و وجعي وتركت إلى جواره حزمة من الحشائش و أمسكته اللجام ودعوته للتخطيط وحيدا لمستقبله القادم بدوني . كان الحصان طوال الأيام

والليالي المتباعدة التي اجتزتها يعتليني وأنا لا أدري حتى أصبَحَت علة الجهل فيّ سمة من سمات شخصيتي، فأنا لا أدري لماذا قررت فجأة ودون مقدمات أن أزور صاحب البيت المعتم وأنا لا أدري لماذا تلهب حبيبتي ظهري يوميا بلؤم الأفعال وسيئ التصرفات رغم قشيب الحلل وزاهي الألوان . ولا أدري كيف انكسر ضوء الشمس في رموش عينيها، ولم أكن أدري معنىً لزمن مر بي، ولزمن آت، ولم أدري علة فُجَئِيّة القرار أو أهميته أو ضرورته، وما كان لي رأي في مواجهة نحلة أسيرة .

ضممت القارورة، وقفلت عائدا للبحث عن البحر ...لقد كان البحر مدفونا في قمقم معتم، ولكني رأيته يتأرجح بين ثمانية أيدٍ...إنني أدري فلقد رأيت ما أقول الآن ! عدت وكان البحر في اتساعه فانتظرت أسبوعا حتى تحول إلى قطرة تنازعت عليها أنا ومن ورائي ملايين البشر مع بجعة عطِشَة وثور هائج وديك جريح... غافلت الأولى ورجمت الثاني وما ألقيت بالا للنازف فسقطت القطرة في رحاب القارورة ووجدت نفسي أسبح مع البجعة والثور والديك.... كان الموج عاتيا والرياح قاهرة فركبت ظهر الثور لأتجاوز وعورة الطريق ورجوت الديك ان يسامحني على إهمالي له لأتجاوز الرياح القاهرة ... حملتني البجعة عاليا فوق الأمواج بعد أن شزرتني طويلا وعادت بي إلى الموقع الأول حيث النحلة ما زالت تتهجد... فتحت القارورة ففاض البحر وتحررت النحلة .

طارت بحريتها وألقت إليّ بمفتاح طويل، صدمتني!... فكيف سأفتح بيتا لا باب له؟! سرت بين حدِّ الصدق وحد النجاة وكأنني أسير على وتر مشدود أو سراط، كنت خائفا من سقوطي أو سقوط المفتاح الذي عضضت عليه أسناني... أنظر إلى أسفل اختلس النظر فأكاد أموت رعبا، والتركيز يتفلت مني، لربما انقلب أو أقع وربما أقفز في عمق الهدوء فأجتاز المحنة ! وهذا ما كان، فعدت أجدّ السير وأبحث عن سبب واحد يدعوني للتمسك بمفتاح لا عمل له ! ولا أدري؟ وكيف أدري والحقيقة سر الوجود ونحن لا نملك الأسرار ولا نحوز إلا على أجزاء ونُتَف و أشطار منها .

كنت أحدث نفسي ولست مجنونا فانفلت مني المفتاح منزعجا... من نقص إيماني وجوعي وقلة حيلتي وانهيار إرادتي وتوتر أفكاري، فدخلت الرمس.... بيت لا أبواب له ولا نوافذ وإنما درج طويل وحوائط بلا لون وملايين من النحل تضيء لي الدرب الطويل، وتكشف أمام قدميّ ما لاتراه عيناي، كدت أتعثر كثيرا فالعثرة في الطريق جائزة ولكن السقوط مرفوض !

ما أصعب أن تنزل بعد صعود وربما من المستحيل أن تصعد بعد نزول أو سقوط.... كانت الدرجات الكثيرة تتراقص أمامي وتتعمد إغاظتي، فكلما ظننت لها نهاية ابتدأت سلسلة جديدة . ماذا أفعل وعلى نفسها جنت براقش، ماذا أقول والمشيئة مني في حدها الأدنى كانت متآمرة مع فجئية القرار في ضرورة المسير وتخطي الأسوار ؟!

وصلت.. لقد عرفت أنني وصلت، والعلم مفتاح لجهل عميق يتكشف، فكلما علمنا اكتشفنا كم نحن مازلنا بحاجة لا تنتهي من سبر الأغوار وكشف الأستار واتخاذ القرار، لقد عرفت أنني وصلت لمبتغى عذبني مللا، عذبني كللا وعذبني تفكيرا وعذبني جهدا وعذبني مسيرا وعذبني بحثا عن الطريق الصحيح . لقد وصلت . وإذ عرفت أني رأيته يلبس ثوب النرجس استنتجت أنني وصلت ....كان يجلس كما خبرته سبعين عاما أو يزيد على أريكة فسيحة، يضع مخدة على فخذيه و يتكئ بمرفقيه عليها، ويتحدث بصوت يوم النشور، تسمعه يتكلم فكأنما يتكلم سبع مرات دفعة واحدة، وتراه يبتسم باقتصاد فكأنما عيون المها قد تبرعت له بما تملك، وتجده يحرك يديه فتطير من حوله الأوراق وتستقر الطقوس في قلوب المريدين .

ما جئت إليك إلا لاجئا حاسر الرأس ينتظر اللمسة، ما جئت إليك إلا خاسرا ينتظر الأمل ومفلسا يفكر بالثراء و مرتكسا ينشد الشفاء ومرتبكا يبتغي السلامة... أتراني وصلت أم تراني ما زلت في أول الطريق ؟!! أتراني إليك أصبت العنوان أم أخطأ قلبي القاتم ؟ لا أعتقد إلا لرحابة فيك قد بذلت، ولسِعَةٍ

في راحتيك بذلت نفسي، ولأمل أرجوه فيك أقف على بابك الخفي أتطلع امتلاك شفاء الروح المعذبة وثراء النفس الحائرة وشفاء القلب الواجد ولمسة الخلود بين جناحيك وفي تقطع أنفاسك وهدير صمتك .

جلست بقُرْبِهِ مطمئنا وتركتُ وراء ظهري جبلا من الألم وتِلالا من العنت وودعت الأرق والجوع والتعب والقلق وعشق سهر الليالي والنظر فوق الرأس وتمددت بقربه لا أفكر إلا بأبدية الراحة ونعومة الإحساس وبحصاني الحزين .

■ ■ ■

• المتوحد في عزلته !

قال الأول: أشعر أنني تافه!

قال الثاني (متعجبا): لأول مرة أراك تتلفظ عن نفسك بهذا القول ...فماذا حصل؟

قال الأول: ماذا نفعل نحن معشر الشعراء والأدباء والكتاب والصحفيين في ظل انتفاضة الأقصى ؟؟ إننا مجرد سجل للأحداث أو رواة للوقائع أو صدى للحوادث ...

قال الثاني: أخالفك الرأي، وحتى إن أقتصر الأمر على ما تقول فهذا شيء كبير، ولا يستحق أن تصف نفسك بسببه بالتافه، وأنت الشاعر الكبير والأديب المعروف !

قال الأول: بلا معروف وبلا كبير، نحن نكتب والآخرون يتمزقون، وإن تمزقنا كتابة لا يقرأنا إلا نحن أو أصدقاؤنا .

قال الثاني: هذا غير صحيح !

قال الأول (مقاطعا): بل صحيح ... وهل تعتقد بالناس الذين يعانون ويذلون ويقاومون ويتحملون الفقد والمشاق والعذاب لديهم بقية من روح تقرأ أو نفس تهدأ لتنغمر فيما نقوله شعرا أو نثرا ... إننا الخداع والأكاذيب وهم

الحقيقة والواقع ...إننا الحمق والتفاهة وهم الأرض والحقل والفعل والحصاد.

كان الأول شاعرا يشهد له، ويدرس شعره في عدد من الجامعات وكان الثاني صديقه الذي لا يقل عنه أدبا وفكرا... لقد كان المتوحد احمد من شعراء الحقيقة والتسامي، من شعراء الانطلاق والثبات، الانكماش والخيال، الانبعاث والتصخر... لقد استطاع بجهد موصول ان يصنع مدرسة أدبية عرفت باسمه أي مدرسة المتوحد الشعرية . وهو من شعراء العزلة أيضا، أولئك الذين ارتضوا اقل القليل من العلاقات في فضاء رحابة واتساع كلماتهم وأبياتهم ومنظوماتهم، فلم يكن على مدى اكثر من 12 عاما يستقبل في بيته إلا اثنين او ثلاثة من أصدقائه المقربين والخلص... على جلسة قهوة او نفس (أرجيلة) كان يتحادث ويتصارع ويتعارك مع ذاته غالبا، ومع سميره متى ما هل .

في الجامعة استطاع المتوحد أن يفرض نفسه بقوة شخصيته ووسامته وجمال جرس كلماته وطلاوة أشعاره ورقة عباراته، وحسن سبك قصائده التي لم تترك حدثا في الجامعة أو البلد إلا جعلته مثار الحديث لأنه افترش حصير أحد قصائده... حتى انه تحدى المتنبي الشاعر العظيم ونسج قصيدة لم أعد أذكرها ولكنها صعبة حيث أدخل فيها اسم أستاذه الأرمني المعقد كما أدخل المتنبي اسم (أمير الأمراء وصاحب الأمر في دولة الخلافة العباسية أبو شجاع فناخسرو) في سياق شعري عجيب حيث قال عنه: أبا شجاع بفارس عضد الدولة / فناخسرو شهنشاها، أساميا لم تزده معرفة/ وإنما لذة ذكرناها . رغم ان (فناخسرو) المذكور كان حاكما فارسيا ظالما متطاولا على أحوال الناس ودمائهم فهو لص بل قاطع طريق! ولكن للشعراء أمزجة وأحوال لا يعلم بها إلا الله.

كان المتوحد الذي حباه الله جمالا إلى جمال ألفاظه محط أنظار الطالبات وخاصة اثنتين منهن الأولى أحبته ولم تترك له قصيدة واحدة دون ان تسلط عليها مبضع الجراح وسيف النقد، والثانية أحبته ولم تترك قصيدة له تمر دون قراءتها وحفظها والإشادة بها، وإبداء الإعجاب الشديد بناظمها ..فترك

العاشقة الثانية وترك معها عشرات المعجبات الأقل درجة ربما وتزوج الأخرى، صاحبة السيف.

في الخمسين من العمر يختلف المرء، فما كان يتقبله قبل عشرين او ثلاثين عاما لم يعد يتقبله في مثل هذا السن، وما كان يطرب له لم يعد ليثير فيه إلا الغضب والحنق والسأم، وما كان صاحبه مقربا أصبح منبوذا لايطاق ... لقد كان-أي منذ زمن مضى- المتوحد يحب النقد والناقدين الذين منهم تزوج إمرأته، وترك دونها الوالهة صاحبة الإشادة الدائمة ... لقد رأى حينها في الأولى عقلا متنورا ونمرة شرسة وميدان حرب ورأى في الثانية خنوعا وخضوعا وتهافتا وتقربا في مستوى التزلف، هو مذموم في سنوات العمر الأولى، وما كانت الرؤية بعد الخمسين عند المتوحد إلا عكس ذلك.

قال الأول: ألفت العزلة حتى أصبح الناس عندي هباءً .

قال الثاني:هذا خطؤك الكبير، فمن يستطيع أن يستغني عن الناس ؟

قال الأول: لكل شاعر ومفكر وأديب لذة في الابتعاد ومتعة في العزلة ونشوة في مناجاة الأنا ...

قال الثاني: وكيف تكتب وتبني وتؤلف بعيدا عن الواقع المعاش وحركة الناس؟!

قال الأول: لست كذلك، فأنا أحس بالناس والحركة والمتغيرات وأنا في مقعدي هذا...

قال الثاني: لا أعتقد إبداعا يتواصل مع طول العزلة، وهذا رأيي وتعرفه فيّ منذ زمان طويل .

قال الأول وهو يعيد حديثا طالما تداولوه على مدى السنين: لقد لزم الإمام أحمد بن حنبل داره زاهدا متقشفا متأملا بعد محنة خلق القرآن وعقب خروجه من السجن ثماني سنوات .

قال الثاني: لقد كانت أحوال الناس أيامه تسير من سيئ إلى أسوأ، وتركهم رجل موقف لا رجل مسؤولية، فما أهمية زهده وتأمله ؟!

قال الأول: إنه إمام عظيم، وقدوة، تحمل سنوات السجن الطويل بصلابة خلفت فيه بعدا عن الناس وعزلة استفاد منها وأفاد...

قال الثاني: ولماذا لا تقول أن عزلة (أبو الحسن الأشعري) القصيرة والتي دامت 15 يوما فقط هي العزلة المحمودة، حيث أثمرت تغيرا كبيرا حين أعلن في نهايتها قائلا: انخلعت من جميع ما كنت أعتقده كما انخلعت من ثوبي هذا، حيث ترك المعتزلة (أهل الكلام) ودخل في أهل السنة والجماعة ...

قال الأول: إن هذا الاعتزال عن الناس لهذه المدة القصيرة شكك فيه الناس وأهل السنة فرآه البعض كالغراب الذي أضاع مشيته، حيث اعتبروه قد أصبح متكلما سنيا ؟!

قال الثاني: ولكنه بلا شك ظل مفكرا صاحب طريقة عظيمة واستدلال مشهود...

قال الأول: وماذا تراك تقول في عزلة وزهد الإمام (أبو حامد الغزالي) الذي اعتزل الناس 11 عاما متخليا عن المال والجاه والوظيفة... (لقد انتصر على متاع الدنيا و أحس انه لا يحتاج إليه لأنه أقوى منه، أصبح في أصفى حالاته، وعندما يصبح الإنسان في أصفى حالاته يصبح أقوى من الجبال) كما قال فيه بعض الكتاب الكبار .

قال الثاني: ولكنك تقول بنفسك وعذرا لترددي الكلمة ثانية أنك تافه، فلم تجلب لك العزلة قوة جبال الغزالي، ولا أفادك أي من كتبه (المنقذ من الضلال) او (إحياء علوم الدين) ؟!

قال الأول: ومن أنا من الإمام الغزالي ! ولكن الحمد لله أنني لا أتكبر على الناس بل أزداد من الخالق خشية وخوفا ورجاء، وأصارع نفسي حتى تستكين وتصبح مطواعة لروحي، وحتى تصبح تافهة أمام عظائم الأمور وكما هو حدث الانتفاضة الجلل مثلا، وأمام عظمة الناس ...

قال الثاني: أنا لا أشك في عظمة شعرك النابعة من الناس، رغم تضايقي من عزلتك وتنظيرك لها، وأنت رغم قوة قلمك وعلمك لم تكن يوما كالمحتجب المعروف بأبي بكر الباهلي الذي وضع بينه وتلاميذه حجابا لأن طلابه يرون بعيونهم السوقة فتصبح بهذا غير جديرة بأن ترى وجهه؟!

قال الأول باسما: وإن اشتممت من كلامك رائحة تعريض، أعاذنا الله من أمثال هؤلاء المتكبرين المتغطرسين الذين يحتقرون الناس، وكان الأولى أن يحتقروا أنفسهم، ولكني أعود على موضوع الاعتزال لأذكرك بأبي العلاء المعري رهين المحبسين الذي حج له الناس في بيته، وأذكرك بعلي بن سعيد بن حزم صاحب كتاب العشق والغرام المعروف بطوق الحمامة، وهو الرجل صاحب الذاكرة المنطبعة كالحاسوب في ذهنه، الذي اعتزل الناس وحبس نفسه 20 عاما يكتب بجلد وحماسة غريبة حتى قربت مؤلفاته 53 كتابا ورسالة ...

قال الثاني: في ابن حزم أفادتنا السياسة التي أبعدته عن ميدانها وقذفته في بئر الأدب والفكر ..

قال الأول في سعي لتغيير كلي لمجرى الحديث، وكان يصب كوب الشاي الثالث، وينم وجهه عن بعض الضيق لمسار الحوار والنقد والسجال: دعنا من أهل العزلة والفكر وحدثني عن شيرين !

قال الثاني: ومن هي هذه شيرين؟

قال المتوحد: إنها زميلتنا في الجامعة، شيرين ذات الوجه القمري والجسد الرخامي والتاج المجلل لرأسها اللطيف ألم تعد تذكرها ..!

قال صبحي وقد اعتدل في جلسته وفهم الرسالة، فرشف رشفة طويلة من كوب الشاي: آه، ألا تقصد تلك الفتاة الودود التي كانت مغرمة بشعرك وكل

أفكارك وتلاحقك بين أروقة الجامعة وفي صفوف الكلية وتذكر اسمك وشعرك صباح مساء...؟!

قال المتوحد: هي بعينها، أراك تذكرتها، ما هي أخبارها يا ترى؟!

■ ■ ■

• المسؤول الكبير والحمار!

اتصل من مكتبه بأحد الموظفين أن أقبل إليّ، واستمر يتحدث في الجمع الجالس في دار ضيافته -مكتبه، فهو يحب أن يستضيف القريب والبعيد، من الرجال والنساء، ولا بأس إن كان معهم بعض الأطفال فالحلويات والمصاصات متوفرة، كان يتحدث معهم عن ولعه بالتحف والمصنوعات الخشبية و باللوحات الزيتية و أسهب بالحديث، والجمع ينصت تارة ويوزع النظر بشكل نصف دائري تارة أخرى ... وهو منطلق بنشوة السكران ولذة الهيمان يتحدث عما يمثل الغزال في اللوحة المثبتة فوق رأسه، ولماذا يفضل طائر البوم على ما سواه من الطيور؟!... احتار الزوار... فهم في جلهم طلاب حاجات والمكتب مكتب مدير عام في وزارة الداخلية متخصص في خدمة الجمهور أو هكذا يفترض ... لكنه لا يترك حبل التفكر او التذكر أو الحوار يفلت من يديه فما أن ينتهز أحد الحضور فترة من فترات الصمت القليلة بين جمله المتدافعة إلا ويعود ليلتقط من المتدخل مقدمته وينطلق كالسهم .

قال أحدهم: إن اللوحة جميلة بل آسرة والعشب الأخضر تحت أقدام الغزال... وكاد أن يتم جملته ليدخل في الموضوع الذي قدم حقيقة من أجله، إلا أن مقاطعة المسؤول الكبير الذي التقط العشب الأخضر من الكلام أقفلت الأفواه إلا من فمه الواسع، حيث استرسل: أما عن العشب الأخضر فإنه رمز للربيع والاستقرار ورمز لحب الأرض ... تذكر المسؤول الكبير أنه اتصل بأحد موظفيه طالبا حضوره، ومنذ اكثر من عشرين دقيقة، وما زال الموظف لم يصل، فأعاد

الاتصال ثانية صارخا: أين أنت يا حمار، ألم اقل لك أن تترك ما بيديك وتأتيني خفيفا... يا حمار!؟ يقولها وكأنه يستمتع بها. عاد يوزع الابتسامات في وجه الجمع طالب الحاجات، وأخذ يسلم على عدد من المدراء من الوزارات الأخرى طرقوا باب مكتبه ينتظرونه طائعين منذ فترة عند سكرتيرته الجميلة الودودة، ولما أجلسهم- وهو والحق يقال دمث كريم في غير مَا يمكن أن يؤثر على جيبه أو امتيازاته او لوحاته- أعاد الترحيب بهم، وأخذ يعرف الجمع بهم ...وتواصل في شرح أهمية أكل العدس المطبوخ في الشتاء، والفرق بين المرسيدس 200 و280 و500، وأخذ يعدد الأسباب التي دعته لشراء سيارته الرابعة الجديدة من موديل العام الجاري وعلى حساب الوزارة بالطبع ...إنها سيارة عظيمة كاملة المواصفات (فول أوتوماتيك) بها مسجل أقراص ليزرية والنوافذ والأبواب تغلق تلقائيا وحركة المقاعد الكترونية ...وتوقف عن الاسهاب مع دخول الموظف الموصوف هاتفيا بالحمار مع مرافق المسؤول الكبير الشخصي، صمت وأشار بسبابته الى الطاولة أمامه وقال موجها كلامه للموظف الكبير: خذ هذه الصورة وأنزلها غدا في صحيفة (الرسالة) اليومية مع موجز عن لقائي الحافل اليوم مع الوفد الياباني الذي زارني، وأطلعته على التطورات والتغييرات والإبداعات التي قدمتها للوزارة... أخذ الموظف الصورة فإذ بها صورة المسؤول الكبير وحده وهو يجلس وراء مكتبه الفاخر رافعا أنفه وكأنه يبعده عن شم رائحة عادم سيارة ديزل، منتفخ البطن والأوداج، وبشعره الأشقر المصبوغ ، كتم الموظف الكبير الموصوف هاتفيا بالحمار ما يدور في نفسه من اشمئزاز وقرف حول صورة مديرُه وابتسم، ولكنه تذكر أن لا وفد صيني ولا ياباني ولا من قرية دير أبو مشعل زار الوزارة منذ اعتلاء المدير العام كرسي الإدارة التي نكب بالعمل فيها مع هذا المدير العام! فتشجع واستجمع ما بقي له من كرامة هدرت مرارا وتكرارا وقال: ولكن أين الوفد الياباني يا سيدي !؟ لم أره !؟ صرخ المسؤول الكبير في وجهه قائلا: وهل تعرف أكثر مني يا حمار، نفذ ما أقوله لك فقط، فلست إلا أجير في هذه الوزارة التي أديرها، ولست إلا" شغّيل عندي لا رحت ولا جيت"، فأخرج مدحورا

ونفذ ما قلته لك . طأطأ الموظف (الكبير) رأسه وخرج وفي نفسه شيء من تعب وشيء من ألم وكثير من المهانة وشيء من إرادة التحدي آن اوانها .

عاد المسؤول الكبير يبتسم، ولما كان الحديث عن التطورات والتغييرات والإبداعات حديث ممتع بالنسبة له ولا ينقطع، لا سيما وأن المسؤول حينها يبدأ بتعداد منجزاته ومآثره من يوم ولدته أمه وحتى أصبح شاكي السلاح ثم مسؤولا ساميا .... وبما أن الجمع الجالس مغتاظا قد سمع تاريخ حياته ربما للمرة الخامسة او السادسة وفي أيام متتالية دون ان تحدثه نفسه بالاعتراض، فقد آثر هذه المرة أيضا أن ينسحب ويترك المدير العام لضيوفه من الوزارات الأخرى ويلقي حاجته عند عتبة المكتب ويشكو همه لمن لا شكوى إلا له، للواحد القهار .

في اليوم التالي وفي خبر مدفوع الأجر على الصفحة الأولى من جريدة (الرسالة) نقرأ: أن المسؤول الكبير في وزارة الداخلية قد التقى وفدا يابانيا أطلعه على الإنجازات والتطورات والتغييرات والإبداعات التي واكبت عصر المدير العام وذلك تحت صورة لحمار متكرش يلبس بزة أنيقة .

■ ■ ■

• النـــــدبة

أفاق من نومه ذات صباح، بل قل ذات مساء، لأنه كان لا يصحو قبل الواحدة ظهرا متعللا بأن الفنان يقوم الليل وينام النهار، فهو فنان ... قد نظنه ممثلا أو مطربا أو عازفا أو راقصا أو مخرجا أو حتى كاتب سيناريو ولكنه ليس من هذا الصنف من الفنانين، إنه رسام، نعم رسام، أدمن رسم الطبيعة ليلا منذ عشرين عاما !! لذلك عندما يفيق يكون صباحه مساء اليوم التالي .

أفاق من نومه ذات مساء، فنظر في السقف ولم يعجبه المنظر، وأخذ يتفكر لماذا يبدو السقف عاليا ؟ ولماذا أبدوا بعيدا عنه ؟ لماذا يجب أن يكون السقف فوقي ؟ ولماذا هذا الفضاء الواسع يبعدني عن الأعلى ؟ أدار وجهه الى اليمين

حيث تنتشر على الطاولة القريبة من سريره مجموعة من علب السجائر الفارغة وثلاث منافض سجائر وقداحتين وعلب كبريت، ومجموعة من أنابيب الألوان و27 فرشاة مختلفة، وثلاثة كؤوس مليئة بماء ملون، وساعة كبيرة، وبقايا (بيتزا) وكوب شاي بارد، ودفتر رسم كبير ولم يهتم، وإن خالجه شيء من التذمر . نظر إلى اليسار، إلى علاّقة ملابس يتكدس فوقها عشرات القطع من قمصان وبنطلونات وملابس داخلية ومناشف، متكومة ... شيئا فشيئا يفتح عينيه فيشتم لأول مرة رائحة غير مريحة سرعان ما اكتشف أنها رائحة الأكداس (المتلتلة) على العلاقة المنكوبة، منذ زمن لم يعد يذكره ... إنها حياته وهو يحبها ولا شأن لأحد بذلك، وإن أحس بشيء من قلة الراحة وتساءل للحظة بارقة ماذا لو كنت متزوجا ؟!

أفاق من نومه، وقام مسرعا من سريره وفتح النافذة المطلة على واد سحيق ذي أشجار متكاثفة، تمتد أمامه السماء من اللاشيء إلى اللامحدود . من فضاء قلبه المغلق إلى فضاء دون مدى منظور . ربما يفكر بالسبب الذي يجعل من السقف بعيدا ؟

لا يدخل بيته أحد، فهو يرسم وحيدا، ويتأمل مع جماعة كثيرة، ولكنها غير مرئية، ويأكل في حضرة من لا يراهم سواه ؟! اختار طريقا رسمه بريشته، فلا ضيق ولا تذمر، لا شكوى ولا أسى . عاش حتى الآن في فناء نفسه وفي دار روحه بروحه دون شريك من رجل أو امرأة كانت ذات زمن تحلل، أو ولد أو جان أو ملك . لقد أراد الاستفراد بذاته يصارعها وتصارعه يفتك بها وتستسلم، تُمرضه فيسبح في المسافة الفاصلة بين السرير والسقف حتى مل السباحة ؟ فلماذا لا ينام على السقف ؟! هو وشأنه.

في اليوم الأربعين من انتقاله من الصالة إلى الغرفة الوحيدة في البيت الوحيد القابع خارج حدود القرية البعيدة عن كهرباء المدينة وأضوائها اللامعة، في اليوم الأربعين اكتشف ندبة في يده المرسامة فخاف ! وقلما يخاف ... فلم يخف العقارب والثعابين والعناكب والذئاب، ولقد خافه القرويون لغرابة فيه أحسوها فتركوه يعيش الثراء في بحر رسوماته، والانطلاق في سماء وحيه،

والاختلاط مع الكثيرين دون عد من رفاقه وأنداده ؟! لكنه اكتشف الندبة في يده فخاف، إحساس جديد لم يعهده من زمن طويل، وشعور متراقص يجمد فيه مثله عن التفكير، عن التخيل، عن الانطلاق بعيدا، ويدخل معه في مغارة لا ضوء فيها ولا ألوان ولا روائح، باردة صلبة الحوائط والسقف ... طويلة .

حمل لوحته الأخيرة واستقل أول مركبة صادفته بعد مسيرة شاقة إلى وسط البلدة، استقلها قاصدا الصخب الممجوج والأضواء المؤذية والعيون الشاخصة وفي معرض الصديق الوحيد الذي عرفه لسنين طويلة مضت نصب لوحته، وانصب تفكيره الملحاح على الندبة في يده . لم يرَ وجه معجبة كانت تجول في معرض صديقه وتتمنى لقياه منذ زمن ...ها هي الآن أمامه وهو لا يراها تكيل له المدائح وهو يبتسم ويهز رأسه ويفكر بالندبة ....تركها وما زالت تعبر عن اعجابها في فضاء المعرض فالرئتين بحاجة شديدة إلى الدخان ولكل أولوياته !! دلف إلى الدكان المجاور يطلب سجائر، وما أن تسلم مطلبه حتى خرج فزعا يشهق من الرعب الذي أصابه، رعب تجاوز مساحة خوف الندبة !! لقد تمثلت له سكينا تقطع يده، فلا يد ولا ندبة !

كان قد انفصل عنها منذ عشرين عاما، ولما لمحها صدفة في الدكان اشتاق لندبته واشتاق للوادي السحيق الذي تطل عليه نافذته، واشتاق لفوضاه في الرقدة والمقام ، وما أسِف على المسافة الفاصلة بينه وبين السقف، وتناسى لحظات التذمر القليلة وقلة الراحة وتناسى رائحة ملابسه العفنة وافتقاده الزمن، واستنشق كمية مضاعفة من الهواء وعاد يعدو دون ألم الى حصنه البعيد وكأن شيئا لم يكن.

■ ■ ■

● ذات الشفاه المرة اللذيذة !

قبل أعوام ثلاثة تلاقت أعينهما في الردهة الفاصلة بين مكتب المدير وصالة الانتظار في الشركة التي تعمل بها لبنى في منطقة أم أذينة في عمان وطال

اللقـاء الذي طالما انتظرته لبنى،لبنى الفـتـاة المنتظرة، الفـتـاة الدافـئـة بعـمق مـشاعـرها ولهـيب عـواطفهـا التي لا تخـبـو إلا لتنبـعث من جـديد جـمـرا يحـرق لحظات الانقباض وأيام الشتاء الباردة، إنها فتاة الجمر حتى لتخافها على ذاتها ،لطيـفـة حـتى لتـخـاف عليـهـا حـفـيف الحـرير،ورشـفـات العـسل، وانتـشـار الفجر،وسلاسة موسيقى (شوبان)، ووداعة المرمر و الغزلان.

كـان عناقـهـمـا الأول في الردهـة،تلاقت الأعين،وانغـمـرت بفـيض من العـشق تمنته طويلا وحلمت فيه حتى ظنته العنقاء، سقطت النظرات على الشفاه فتهللت وكان اللقـاء الأول بعـد الانتظار الطويل الذي أسهـدها. لم يـرُق مثل هذا الوفـاق، الحب، التـلاقي، التـواصل لـزميلة ادعت لهـا الصـداقـة، فكانت تقلب حـقـائق المشـاعـر والمُسهَدة، وتدفن عن سـابق عـمـد همسـات مـحبّين،وخلجات عـاشقين غافلين، بداعـي الحرص على لبنى. فإذا مـا نبهها زوجها المرتقب لحجم الأصباغ المتزايد على وجـهها الجـميل، أو إفـراطها في السـهـر مع زميلاتها، أو انقطـاعـها لصـويحـبـاتهـا دون أهلهـا،أو لترددها على بعض الأمـاكن غـيـر المريحة، أو لتقلص حجم الاحتشـام في لبسـها،أو لعبـارات ما ظن أن تقولها مثلها، إلا وكان لزميلتها الأثير رأيا يصبُ في خانة التفريق... لا تسـتـمـعي له إنه يريد أن يتحكم بك،لا يحق له أن يتـدخل في أمورك الخـاصـة، إنه متـحـجـر،إنه مـتأخـر وكلما وجـدت من لبنـى همـسـات أو عـتب أو شـجن أو تنائـي مـحـبين بينهـا وبين مـدحـت، أو كلمـا وجدت منها أذنا صـاغيـة لفحيحها زادت في عيار الطعن في أسباب مُـلاحظات أو عتب أو شـجن مدحت الحنونة والمحتشمة،والغيورة واللطيفة،... دعكِ منه إنه رجل رجعي والحياة أمامك، لا تسـمعي له، وأنصـتي لصـوت أنوثتك وانزعي عنك ثوب الحياء وألقِهِ في وجهه الخلاسي، إنه يريدك عبدة في محراب الرجل.

لم يمضِ على عسل العـلاقة شهـور سـتة حتى طغـى المرار ولـزم العسل منـهمـا مُـغلق الجـرار... رفضٌ للقـاءات، وإهمـال للمكالمات، وتنـصل من الوعـود، وتبـرم ومماطلاتَ في تحديد موعد كتب الكتاب والزواج .

في يوم الكسوف الشهير الذي مرّ على الأردن والعديد من دول العالم في شهر أغسطس من العام السابق على انتهاء الألفية،في ذات اليوم الذي قبع فيه الأردنيون خائفين مترقبين في بيوتهم،كانت الشركة التي تعمل فيها لبنى من المؤسسات القليلة التي لم تعطل، كان يوما مشهودا، الكلُ منقطع الأنفاس لرؤية الكسوف الأخير في القرن العشرين إلا مدحت الذي بدا موزع النظرات محتبس العبرات .لقد حسم أمره وعزم على وضع حد واضح لعلاقته اللذيذة المرة مع صاحبته !!

خرج الى الشارع وانتظر طويلا سيارة أجرة لتقله إلى شركة لبنى،وقبل توسط القمر في عين الشمس ركب السيارة،مطرقا صامتا !! ورغم ثرثرة السائق الذي أخذ يستعرض شجاعته في تحدى منع التجول الذي فرضه الناس على أنفسهم، إلا انه لم يسمع شيئا وما أدرك كنه حديث السائق إلا عندما ألح عليه سائلا عن سبب خروجه في يوم الكسوف العظيم؟! ظل صامتا ولم يجب فماذا يقول ؟! وحُبُه ثلج أسوَد، أمسه غدا أفضل من يوم الكسوف الكئيب هذا، على بركة الله، هكذا قال!! فلم يفهم الرجل الجالس يسوق المركبة شيئا، أوقف السيارة وهو ما يزال فاغرا فاه، رافعا حاجبيه واستلم أجرته على باب الشركة، وانطلق يحدق في قرص الشمس المكسوف .

دخل مدحت الشركة التي تعمل بها ملهمته، وما إن أقترب من ذات الردهة التي شهدت عناق أعينهما الأول حتى تناهت إلى مسامعه صوت ضحكات مختلطة عالية استطاع أن يميز من بينها بسهولة العذوبة والسلاسة وصوت انسكاب الحليب،وانغماس الوتر في عمق اللذة، انه صوت لبنى !! توقف في الردهة وأحجم عن التقدم إلى الأمام ... وكأن المتضاحكين أحسوا بوقع أقدامه في الردهة، خرجت لبنى تستوضح القادم،فنظرته واقفا وحيدا مطأطئ الرأس كسيح النظرات. رمقها من بعيد،جمدت في مكانها وتصلبت ساقاها وانقبض قلبها وانتحرت ضحكتها التي كانت منذ برهة على وجهها مرتسمة. لم يرَ مدحت شيئا أمامه إلا سقوط الشمس و موت الضحكة منها تلك التي ارتبطت بمرآه ...

لقد سَحقت أُنس اللحظات ونغَم اللفَتات فهرول مندفعا إلى الخارج واغلق الردهة وودع الخوف والجزع و كسر الهلالين ومسح القُبلة المطبوعة على وجنته اليمنى .

■ ■ ■

• زينب تمسح السلم !

كانت زينب تمسح درج البناية، لقد تعودت ان تمسح الدرجات ولا يساعدها أحد، سمينة بشكل ملحوظ، متينة حتى أن كتل اللحم التي تكسوها تشد على الثوب الذي تلبسه معلنة الرغبة بالخروج من الحصار الخانق والرطوبة القاتلة التي تعيش فيها.

تمسك بيديها السمينتين المسحة المبللة بالماء والصابون وتدفع عجيزتها إلى الخلف، وتنزل السلم درجة درجة وقدما تتبع الأخرى، إنها تمسح من الأعلى إلى الأسفل، ورغم منطقية هذا الأسلوب إلا أنها شاهدت يوما جارة لها تمسح بشكل غبي، هكذا قالت زينب لجارتها التي كانت تمسح الدرجات المجاورة لشقتها من أسفل إلى أعلى وصولا للشقة أي لشقة هذه الجارة . لم تتمالك زينب نفسها وصرخت بها: يا غبية ما هكذا يمسح السلم ؟!إنها امرأة صارمة.

تمسك زينب بكفيها المسحة المبللة وتبدأ بالغناء، تغني لأم كلثوم، وتغني لعبد الحليم، وتغني لعبد الجبار الدراجة، ولمن لم يسمعوا بهذا المطرب الأخير فهو مطرب عراقي ضمن مجموعة كبيرة من أقرانه طغى عليهم صوت كاظم الساهر. تبدأ بالغناء ولا تمل، تلهث وتغني، تمسح العرق المتساقط بكمها الطويل وتنزل درجة وتغني، تدفع بعجيزتها الراجحة الثقيلة إلى الخلف وتنزل درجة أخرى برجلها اليسرى ثم اليمنى وتغني، ترفع المسحة وتضعها في الدلو ثم تخرجها أكثر بللا وتطرقها على سطح الدرجة السبعين.

اليوم الذي تمارس فيه عملية المسح دوام كامل (ولا دوام الموظفين)، يبدأ من الثامنة صباحا حتى الواحدة ظهرا -وأي موظف يلتزم بمثل هذا الدوام-، وكلما وصلت طابقا من طوابق البناية أفزعت الجيران بالدق على الأبواب والأجراس وبالصراخ طلبا لملء دلوها، ثم تكمل مسيرتها الأسبوعية حيث أن يوم الثلاثاء من كل أسبوع هو يوم نظافة سلم البناية الذي ترفض زينب العرفسيس الصلندحة -أي الضخمة العريضة- أن يشاركها فيه أحد. إنها امرأة قوية .

إنها تمارس طقسا من طقوس حياتها اليومية الرتيبة وتفتخر بما تمارس وتبدع !! لقد علقت في جميع الطوابق أوراقا بيضاء كبيرة كتبت على كل منها بخط واضح كبير (النظافة من الإيمان) وكلما تم خرق القاعدة كأن تجد عقب سيجارة أو ورقة جريدة أو محرمة ورقية أو طين... تقيم الدنيا ولا تقعدها، وتنظر بالأمر في منتهى الجدية إما بمعاقبة المتسبب أو بعقد اجتماع على مستوى البناية ...لقد كان لها أسلوبا طريفا في العقاب فإذا كان المتسبب بالوساخة طفلا اعترف على نفسه طلبت منه مباشرة غسل الصحون في بيت أهله، وإن كان طفلا اعترف عليه أقرانه طلبت منهم أي أقرانه أن يدلقوا عليه دلاء من الماء لتقوم هي بمسح السلم وراءهم، وإن كان المتسبب في خرق قوانين النظافة بالغا (أو بالغة) أرغمته على شراء 4 كيلو تفاح يقوم بتوزيعها على الشقق المجاورة بالعدل، هذا إن اعترف هو بذاته وغالبا ما يتم الاعتراف! لأن عدم الاعتراف يعني اجتماعا لمجلس البناية ترغي فيه وتزبد وتغرم كل ذكور البناية -سواء كان المتسبب بالوساخة رجلا أو امرأة- بمنع الطبخ في بيوتهم لأيام ثلاثة ويا ويل ويا سواد ليل من لا يلتزم بالتعليمات أو العقوبات، وتشتم أو يشتم جواسيسها رائحة طبخ او طعام في أيام المنع والعقاب. إنها شرسة.

لا تكتفي زينب بالغناء والمسح والشطف لأكثر من خمس ساعات كل ثلاثاء، ولا تكتفي بتعليمات النظافة الصارمة، وإنما ألزمت جميع السكان بتركيب هاتف داخلي (انتركم) لا يفتح إلا لسكان البناية أو ضيوفهم ولذلك قصة ...ففي يوم من الأيام وأثناء جولة زينب التفقدية وجدت روثا وترابا وأوراق شجر على

درجات السلم فأزّمت أهل العمارة بأسبوع كامل من الاجتماعات والتحقيقات، ولا من يعترف . إلى أن اكتشف عيونها المنتشرين أن المتسبب في هذه الفوضى كان مجموعة من القطط ليس إلا ....ألزمت منذ ذلك الوقت الجميع أن يغلقوا الباب الرئيسي بقفل كهربائي صونا للبناية وحماية لها وحفاظا على نظافتها .

تمردت إحدى الجارات على قوانين زينب، فرفضت أن تزودها بدلو ماء لأنها قررت أنها مسؤولة عن عتبة منزلها فقط (والله لا يوريكم!!) ماذا حصل لهذه الجارة . لقد قررت بعد عدد من الاجتماعات المتتالية مقاطعتها من قبل السكان، كل سكان البناية فلا زيارات ولا أطعمة متبادلة ولا لعب لأطفالها مع أطفال الجيران، ولا لفتح الشبابيك إلا في ساعات محددة، ومنعت زوجها بقوة القرار من حضور جلسات مجلس العمارة، وأسقطت عضوية أبنائها من نادي أطفال البناية، ومن الفرق الرياضية للحي حتى جاءت أم سمير وهذا أسمها طائعة راكعة راجية خانعة . إن زينب امرأة قوية محنكة لا تقهر.

لقد ضربت زينب بذلك عصفورين بحجر واحد -كما يقول المثل- فلقد قضت على أي معارضة لاحقة وأكثر، إذ لا يبزغ فجر يوم الثلاثاء من كل أسبوع حتى تقف الدلاء مليئة بالماء أو بالماء والصابون عند باب جميع الشقق بانتظار زينب العجزاء الركراكة الرداح -أي سابغة الإلية- ، حتى تم اختيارها لحنكتها وشراستها وقوتها وصرامتها هذه عضوا في الوفد الفلسطيني المفاوض عن حقوق الفلسطينيين السياسية في مفاوضات الوضع النهائي مع الإسرائيليين .

■ ■ ■

• سال الرحيق ؟

كنت سائرا في طريقي فاستوقفني ودفعني للدخول فوجدت أرضا خصبة كأنني للمرة الأولى أراها ... من نور الى ظلمة بدأتُ في تبينها لأكتشف أن هذه الأرض ليست بالغريبة عليّ، تعرفت عليها فلقد كانت تعيش معي وأعيش فيها دون أن أدرك كنهها دهرا أو دهرين .

تكاثفت البقع السوداء شيئا فشيئا حتى غطت على جميع مساحة اللون الأبيض، وعلى مساحة الألوان المتدرجة، فأصبحت كتلا من الغيوم السوداء الثابتة... أضرت بي إضرارا شديدا حتى عدمت النفس وبت لا أتنفس إلا بإذن من الغيوم وبتصريح من البقع السوداء، وبصعوبة ...هكذا كان حال نفسي قبل الدخول الى الأرض الجديدة .

دق الجدار الفاصل في عقلي بين الحقيقة والخيال، بين حقل الدراسات والأبحاث الذي خبرته وكتبت فيه، وبين حقل تطير فيه الفراشات مع الأسود، وتحبو فيه الزرافات مع النمل، وتأكل فيه الحيتان مع الطيور من شجرة قصية، الكل يتواثب ويتقافز حولها ... في الجدار الفاصل بين عقلي الباحث عن الحقيقة وعقلي الخيالي فتحت ثغرة، فتحت نافذة ...أطللت بالاتجاه الآخر حيث الخيال يُنسج من واقع الأزمة، وحيث الروح تصارع الجسد، وحيث يلتقط الفلاحون قطع الغمام بمطر الآتي، وكانت الأبواب كثيرة وشرعة، ولكني اخترت نافذة .

كنت احمل دنا على رأسي مختمرا منذ أعوام، يثقلني ولا أعرف طريقة أُرحِله فيها إلى مكان آخر...انتظرت طويلا حتى انفتح الصنبور المثبت أسفل الدن يصب عصيرا لذيذ الطعم في مرارة حلق الأمس، ومرارة الزمن القادم .

كنت قلقا إلى درجة تفوق الانزعاج، قد تسمونها اكتئاب أدت بي إلى أن عفت الطعام والشراب ...وأرقت فلم أتمتع بنوم الهانئ ولا نوم الصغير، أزعجتُ نفسي

بترقب لما لا أعلم ....في ضيق شديد من أمري كنت، بحيث لم ينفع معه المشي الطويلُ والعرق الغزير وتغيير الأجواء والوجوه والأماكن ....جولات وجولات كنت أقوم بها في شوارع وأَنهُج وجادّات برفقة كائن شديد البأس عجوز، وحده احتمل معي المشي الطويل ...والهَروب من المكان والزمن .

لقد فتح الصنبور ولم يكن يرقبني أحد، لم يتوقف عن النزيف، فسال الرحيق مدرارا ولم ينقطع ...وحتى بعد أن فرغ الخزان، كان يعود ليمتلئ شيئا فشيئا ويضغط على قمة رأسي بشدة السيد يأمر عبده فيطيع ولا راد لأمره ...ولا راد لسيلانه.

جلست على السرير أحيانا، وعلى المكتب أحيانا، و شحنات الكهرباء المتصلة بالقلم المثبت بين أصابع يدي اليسرى تهز يدي هزا شديدا ...الكترونات كثيرة تتحرك، قال صاحبي: كنت أراك تنظر إليها وكأنها تتراقص في ظلمة الأحشاء، أحشاء القلم قلت: ومن حرقة القلب يندفع نور متصل مربوط بذاكرة تتحدى القوانين . قال صاحبي: وأدركتك والقلم يتحرك بين إصبعيك من اليمين إلى الشمال وأنت بارد دون إرادة . قلت: خلته يكتب بحبل مشدود وصلة معقودة مع ما وراء الطبيعة أو بتقنية الحلم، قال صاحبي: كان يكتب بذكاء الفرصة وندرة الخيال، هكذا حدثتني حينها .

أفرغت في البيت خزانا وأفرغت في المكتب خزانا وعدت لأفرغ خزانين على الأريكة الموضوعة في الصالة الواسعة الشاحبة الباردة ...كانت الشحنات المتصلة بالقلم تطوع خشبَه ورصاصه .... ينظر لي بعينه اليمنى ويضحك أحيانا، ويعتصر روحي من أصابعي ...ينكمش ويتلاشى في آن آخر لأرقب عودته الفجئية كثيرا .

نصب خيمته في ظلمة وجلست أنتظر حول النار الموقدة فيها ...فمن تراه يقدم عليّ في زمهرير هذه الليلة الجوفاء الغريبة الحافية ...ومن تراه يقبل ولا يجزع من هدوء لا تقطعه نباح الكلاب أو عواء الذيبة ....لم يكن لأحد أن يتقدم

إليّ إلا هو، وهُنّ تقدمن مجموعات زرافات فرق أسراب لا بل وتجادلن كثيرا قاطعات هدوء الليل وسكون القلب ورائحة القهوة المحمصة تهب من الأعلى وهسيس النار وانفلات الفكرة من بحر الانصياع ولذة الاستقرار في القعر، قعر الزمان الثابت المدون، قعر الذاكرة، القلم وبنات أفكاري يتآمرون عليّ.

في ندوة لجمهور صعلوك وقف الأديب يرد على سؤال صغير مرر له عبر قصاصة مرعوبة من طالب يائس فقال بعد إغماضة أليمة وتنحنح و زفرة طويلة: عشق هي قلما يعيشه الدوري أو الانسان ؟ وهل يلاقي المرء صَبَّه في كل يوم، أم هل يجد الأيل معشوقة كل يوم . ربما لا يراها أو لا يسمعها ولكنه يشعر بها في خلاصة عينيه وحبات الندى الطافية فوق عرش قلبه، يحس دفء الاقتراب، ورعونة الأصابع الطرية الملساء اللذيذة كلما كانت الرعدة كلمة في جسده تشكل بناء النفس وصورة العقل ... لقد تكلم الأديب في جمع من الحضور كالحالم أو المسافر، وهو في رده عن سؤال القصاصة كيف يكتب وكيف تزوره الأفكار ؟ كان ينفث مرارة الفعل الصعب وحرارة العشق الأكيد لطيف ينتزع من بين الأصابع ليتجلى حقيقة تخط على الورق الأملس .

كنت معه وفيه ولست بالأديب وكنت به ومعه ولست بالكاتب ولا الباحث وكنت أشعر بقطع الروح تتجمع في كلماته وكأنها تخرج من دهور طويلة امتلكتني . خرجت وصاحبي من سياج الندوة والأسراب تلاحقني كما كانت بالأمس .

■ ■ ■

• شقراء و ماما ماما !

شقراء فاتنة، ربما لأنها فقط شقراء يرونها فاتنة، صاحبة قدٍ مياس كما يقولون، عينان زرقاوان تجعلكم تعذرونه ....لأننا نحن الشرقيين- ربما ليس الكل- نبهر بالشقراوات كما تعرفون ... كان ذلك في يوم من أيام مدينة باريس المشرقة، وكان صاحبنا يتمشى داخل أروقة مطار شارل ديغول بانتظار الطائرة التي ستقله مغادرة الى ستوكهولم .

رمقها جالسة تقرأ صحيفة فوقعت في قلبه والعرب مشهورون بالحب، وبالحب من النظرة الأولى ولكم في أبطال الغزل العربي من قيس وليلي وكُثَير عزة وقيس لبنى وولادة وابن زيدون وغيرهم مثلا حسنا، ولكم أيضا في أفلام أنور وجدي وعماد حمدي ورشدي أباظة وعبد الحليم حافظ معين وينبوع لا ينضب في الحب من النظرة الأولى، المهم رعاكم الله أنها وقعت في قلبه ... موقعا أثقله الى الحد الذي أنساه موعد الطائرة ...ولما كان المذكور عربيا خجولا ولكنه وقع في قرقور الشقراء الباريسية(والقرقور نوع من شباك صيد السمك يستخدم في الخليج العربي) فقد تمنى على الله أن ينطقه وهو يتقدم باتجاهها خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الخلف .... وعلى ما يبدو أنها أحست به فرفعت وجهها وابتسمت، وكان عاشقنا يتحاور حينها مع رجليه هل يتقدم بهما أم يتأخر ...قالت له رجله اليمنى: عليك بالإقدام – وليس الأقدام- فأنت سليل خالد والقعقاع وعنترة وأبوالضباع ... وقالت له اليسرى- طبعا المقصود رجله اليسرى وليس الممثلة يسرى- عليك بالانهزام فأنت سليل جماعة أُحد ومعركة الهرم وانسحابيو حرب الأيام الستة (وهي نكسة 1967 كما أسماها محمد حسنين هيكل للرئيس عبد الناصر تخفيفا من وطء السماع وعنف التسمية بهزيمة) تعقدت رجلاه فوقف في منتصف المسافة ... نظرت إليه وابتسمت وكأنها قرأت أفكاره فلا بد أن العريان ذوي أفكار ونوايا واضحة وفي حالته فاضحة وأيضا راضخة، غير مستورة كما هو حال الهيفاء الشقراء قليلة الملابس كثيفة الشعر .

ولكم أن تتصوروا حالته المرتبكة المعروقة وهو يلبس بدلة وربطة عنق، حليق الذقن عطِر الشنب ويمسك شنطة (سمسونايت) -ولا أحد يدري لماذا يجب أن تكون (سمسونايت)- بيده ويقف قبالة مقاعد المنتظرين ومن حوله الناس في حركة لا تهدأ يتجنبونه كلما مروا ولا يلقي أي منهم له بالا إلا من كان أسمر البشرة مثله ...هي تبسمت فلم يرَ من دنيا المرحوم شارل ديغول تغمده الله بواسع رحمته إلا عبير من الورد منثور وأنوار من الأفق منشور وأصوات كخرير ماء تحف به من كل جانب، ومناظر نخيل متكاثف متراكب فتان كذلك الذي تتزين به مدينة النجف الأشرف .

لقد عاش لحظات من الحلم هي حال كل العرب الذين يعايشون واقع الألم والرفض والإنهاك واللهاث والانتهاك والكآبة وخيال الأمل ورغبة الامتلاك وتحقيق الأماني ....وماذا يريد العربي الموجوع المقهور المقموع سوى اتاحة الفرصة له للحلم !! إنه يحلم بالوحدة ويحلم بالديمقراطية ويحلم بالاشتراكية ويحلم بالرأسمالية ويحلم بالإسلامية ويحلم بالقانون ويحلم بإطعام أطفاله ويحلم برتبة العقيد أو المدير العام ويحلم بالسيقان الجميلة أو يحلم مثله بالشقراوات حصرا .

بعد جهد استطاع أن يفك ترابط رجليه فتقدم متشجعا من ابتسامة سليلة حوض اللورين، بنت الإيفل ونهر السين ... وما زالت خيالاته ملتهبة لا تهدأ وكأنه عبد الحليم حافظ ومرفت أمين في فيلم أبيه فوق الشجرة أو النخلة .... لم يعد يحس بما حوله ولم يعد يسمع إلا نداء الابتسامة العجيب والعيون الفتاكة والشعر الأشقر الغزير المنساب على الكتفين .... هي خطوة واحدة تقدمها وهو يفكر مليا بماذا يتكلم، هل يتكلم معها بالفرنسية التي لا يعرف منها إلا كلمات أو عبارات بعدد أصابع اليدين، أم يتكلم باللغة الإنجليزية التي يتكلمها كما يتكلم الخليجي اللهجة المصرية أم بالعربية وهي أي الحسناء الموصوفة بالطبع ليست عربية .

توقف بعد الخطوة الكبيرة الأولى ...وصراخ طفل من ورائه بدأ يدق مسامعه من بعيد ويقترب: ماما ماما إن أبي قد أنجز حجزنا إلى دبي، فهيا بنا . قال في نفسه: من أين جاء هذا الصوت ليعكر صفو أحلامه الوردية وغزواته العروبية الخيالية .... ما علينا دعه يصرخ على امه ودعوني في بحر أحلامي وحبي أعيش، هكذا حدّث نفسه .... توقف بعد الخطوة الكبيرة الأولى ولم تكن في الحقيقة الا الأخيرة فقد صدمه الطفل المهرول وتجاوزه ليرتمي في حضن الشقراء الباسمة .

■ ■ ■

• شهيد الأحلام الصغيرة !

سارت الجنازة في مسارها المعهود باتجاه مقبرة البيرة توأم مدينة رام الله، كانت الجموع الحاشدة ... تكبر وتصرخ بالشعارات الوطنية، ولم يكن (أبو علي) أن يترك مظاهرة أو يتخلف عن جنازة، لقد أصبح هذا الرجل معلما من المعالم الرئيسة في أي حشد شعبي ... صوت جهوري، في جسد نحيل، وخطاب سياسي متكامل أتقن أبو علي فن اختزاله في بيت من الشعر أو في عبارة مسجوعة أو جملة مؤثرة تصدح بها الحناجر كشعارات .

كانت الجنازة تسير وأبو علي مرفوعا على الأكتاف، وفي مثل حالته كان يجب أن يرفع على الأكتاف ربما لسببين الأول خفة وزنه والثاني قصر قامته، ولهذا السبب لم يكن أبو علي عبئا جسديا على أحد ... وكان في نفس الوقت صوت الشعب، وهمس الحواري، وصخب الانتفاضة .

تبدأ المسيرة بالآلاف وكلما تقدمت تظهر الأعلام الصفراء والخضراء والحمراء وترتفع حتى تغطي فضاء المسيرة فوق الرؤوس وتغطي على علم فلسطين الذي كثيرا ما يبدو في أزمة الألوان متراجعا مكلوما .. وأحيانا تلمحونه غضبانا أو مبلولا من الدمع ؟! وتنتهي المسيرة ببضعة عشرات ليس من بينهم حملة الرايات التي تنكس حين ينطق الحجر!

في المسافة القصيرة من مسجد جمال عبد الناصر أو مسجد البيرة الجديد الى المقبرة يتلون الفضاء بألوان فردية ليست من رموز النضال الفلسطيني الحق الذي لا يعترف إلا بالألوان المتوحدة في علم فلسطين، وأبو علي ما زال يهتف .

الشهيد طفل فهو ليس قائدا وليس مجاهدا وما هو بمناضل كبير كما ذكرت البيانات التي صدرت تمجده كذبا وبهتانا من هذا الفصيل الأصفر أو ذاك الأخضر أو رفيقه الأحمر ... إنه طفل، ويكفيه من الشهادة ذلك، لم يجاهد او يناضل او يقود أحدا ... ولكن المبالغة وأصوات المنافسة الحزبية البغيضة تجعل من الطفل-الشهيد- الحدث-الجنازة شيئا لم يكنه إطلاقا؟؟!

لقد مات صدفة وليس في ذلك انتقاصا من جرائم شارون والعدو، ولا انتقاصا من الشهادة بحد ذاتها،ولكنه بالقطع ليس مناضلا او مجاهدا أو قائد؟!... ولا يحتاج الشهيد لأي من هذه الصفات ليكون ... وليقتله جندي حاقد أعمى البصيرة والبصر لا يرى غضاضة في قتل من بلغ الحلم او لم يبلغ ... ويواجه المحتلين بحجارته او لم يواجه؟

أبو علي ما زل مشرئبا ... ونظارته تنزلق فوق أنفه ... يمسك بورقة دوّن فيها شعاراته ويهتف: للأمام للأمام وحدة وحدة على الدوام، ويردد الجمهور الغاضب خلفه مثلما قال .. ثم يرفع يده ويقول بالروح بالدم نفديك يا فلسطين، ويردد الغضب صوته هادرا في سماء رام الله والبيرة ... كانت الأعلام تتكاثر ... فلقد وقفت على طرف الشارع سيارة أخرج منها سائقها آلاف الأعلام وصرخ على بعض الصبية ونقدهم مالا وأعطاهم الرايات البغيضة التي غطت على العلم الحزين ... علم فلسطين .

قطب أبو علي جبينه وضغط بغيظ على أسنانه، وعاد يردد الشعارات التي تحث على الوحدة الوطنية ورمزها السامق علم فلسطين ! ولكن صاحب السيارة ينتظر انتهاء المسيرة ليلم الاعلام ؟!

قام احد المختصين بالجنازات بلف الجسد الطاهر للطفل ورأسه براية كتب عليها (لا إله إلا الله) رمزا لفصيل دون غيره ... لا إلى الله ! وحدثت مشادة نزع على أثرها العلم وبقي الله في قلوب ونفوس وعقول المؤمنين ...

قال لي أبوعلي: إنهم حرامية الجنازات؟

كان أخو الشهيد يسير بجوار التابوت ... صامتا يتفكر، بالأمس كنا نلعب مع أولاد الحارة، وبالأمس فقط قال لي أخي الشهيد لا أريد أن اشتري لعبة في العيد، ولا أريد ان ألبس الجديد من الثياب ...وسأوفر مصروفي لأشتري ملابس جديدة لصديقنا في البيت الملاصق لبيتنا في المخيم، وساذهب لاصلي عند قبر الشهيد عبد القادر الحسيني في القدس الشريف!

ها أنت في الطريق الى الحضرة السنية ... وسأشتري لصديقنا حلة جديدة كما رغبت ... خرج الشهيد من التابوت وقبل عيني أخيه وابتسم له الابتسامة الأخيرة ... ما كان الشهيد مجاهدا ولا كان مناضلا بالعرف النضالي الجهادي ولا كان قائدا ... كان طفلا فلسطينيا صغيرا ... كان إنسانا، كتلة من حب وامل وعنفوان ومشاعر سامية واحلام صغيرة !

سجي الجثمان وصلى الحشد المؤمن من أبناء فلسطين الذين يكرهون الألوان المتفرقة ... خضراء وحمراء وصفراء، وكان أبو علي إمامهم وفوق رأسه يرفرف علم فلسطين، وحولهم تحوم قطع من الأحلام الصغيرة وحشد من الملائكة وانطلق منهم بضع عشرات مع علم فلسطين يرجمون الشيطان.

■ ■ ■

• طارق يواجه الخرافة .

قال الأول:إنك جبان !

قال الثاني: مظهر شجاعتي واضح ...لست جبانا.

قال الأول: بل أنت جبان !

قال الثاني: لن أطلق عليك النار.

قال الأول:إذن اخرج من درعيك!

قال الثاني: ماذا تقصد؟

قال الأول:اخرج من درعك المادي الذي تتحصن فيه مني، واخرج من درعك المعنوي الكاذب، غطرسة نابعة من الجبن وعقدة الخوف.

قال الثاني: وإن كنت مدرعا بما قلت، فأنا الأقوى.

قال الأول:القوة لا تنبع من الخارج.

قال الثاني: ستقول لي من الداخل وتأخذني في دوامة من التفلسف السخيف.

قال الأول:إن قوتك خارجة عن نطاق ذاتك، فأنت قوي بما تمسك به يداك، وبما تتحصن فيه، و بالحديد الذي يدب بك على الأرض ...

قال الثاني: أما قوتك أنت أيها المتفلسف فستقول لي أنها بعدالة قضيتك ...

قال الأول: نعم، وبأشياء لا تمتلكها أنت !

قال الثاني: الشيء الوحيد الذي لا املكه هذه اللحظة هي روحك!

قال الأول:أنت لا تمتلك إلا ما ترتديه الآن فقط .

قال الثاني: وأملك قرار حياتك !

قال الأول:أنت لا تملك إلا جبنك وخوفك، تعيش وتنمو فيه، ونحن نملك إرادة الفوز، إرادة المواجهة، إرادة العيش وإرادة الموت، إرادة الإقدام وإرادة النصر ... فمن أين لك بكل هذه الأشياء يا ترى ؟!

قال الثاني وقد بدا يتململ: كلام ضعفاء ...كلام فارغ .

قال الأول: بل عقلك .

قال الثاني، وقد بدا يضغط بكلتي يديه على بندقيته الأمريكية ويوجهها صوب محدثه: انتم شعب غير موجود أصلا، وأناس إن وجدوا صدفة فهم دون مشاعر، وأفراد دون مستقبل، لذلك فقتلكم مسالة وقت ليس إلا!

قال الأول: وهل ترانا دجاجا أو ذئابا أو غنما؟

قال الثاني: لقد قال حاخامنا الأكبر فيكم أسوا من ذلك ؟ قال أنكم حيوانات و صراصير و قمل، وأنا لا أوافقه على ذلك؟!

قال الأول: يصعب عليّ أن أرى فيك تطورا إيجابيا!

قال الثاني: لا تتعجل، فأنا أرى بما سبق كأننا اعترفنا بوجودكم ...لن أقول مثل ذلك، بل أقول إنكم لاشيء، إنكم عدم؟!

قال الأول: عدمت حياتي ... إن كنتم أو كان كبيركم من الصادقين، وأنت فيهم كاذب أشر ! فأنتم خرافة!

قـال الثـانـي وهـو بقـمـة الحنق: وصـمـتني بالجبن والخـوف والخـرافـة، وبهـذه البندقية سأثبت لك امتلاكي لقرار حياتك ومن وراءك ...؟!

قال الأول: أخ أخ ...

قال الثاني:أي أي ...

أطلق الجندي الإسـرائيلي الواقـف على حـاجـز دير إبزيع من قـرى رام الله رصاصة صوب طارق الفتى الشامخ بسنواته السبع عشرة فأصابه -دون احترام يذكر للأوامر المشددة بأن تكون الرصاصة في الرأس أو الصدر_ في ذراعه اليسرى، وعن قرب حيث تفتت عظم الذراع ... ركض طارق بشكل ملتو كما هي الشوارع التي شقت لخدمة المستعمرات والقابعين فيها من إرهابيين ومحتلين يغتصبون أرضنا ... وصل عربة الإسعاف رغم كثافة النيران التي أطلقت عليه من عدد آخر من القناصة والجنود المتحصنين.

سقط الجندي الإسرائيلي الخرافة والمرعوب مضرجا بدمه ...ظل صدره ينزف من سكين شقت قلبه غرسها فيه طارق .

■ ■ ■

• في الزمن الواقع بإمكانكم أن تطيروا !

في الحقيقة لم أكن طيرا وإن رأيتموني أحلق في السماء، فلا بد أنكم تعلمون أن الطيران غير مقصور على الطيور، فهناك من الكائنات من استطاعت أن تطور عضلات وأجنحة وذيول وعظام نهضت بجسدها وحلقت فيه في قلب الغازات التي تلف الكرة الأرضية ؟!

في الزمن البعيد كانت مثل هذه الإمكانية حلما وأمنية وإلا لماذا حاول عباس بن فرناس الطيران ؟ ولماذا طور ليوناردو دافنشي أحلامه في الطيران رسماً لآلات أصبحت حقيقة بعد قرون !

في الزمن الواقع بإمكانكم ان تطيروا دون أن تحسبوا على أمة الطيور ! وهذا هو شأني معكم في هذا العالم... كان يتكلم في القاعة الواسعة التي اجتمع فيها عشرات من علماء الطبيعة والأحياء والفلك والدين، يحدقون فيه -مشدوهين وغير مصدقين أو متلهفين - واقفا أمامهم أحيانا وطائرا فوق رؤوسهم أحيانا أخرى !

لقد توهموا في البداية أنه يستخدم نوعا ما من الآلات المساعدة على الطيران ولما فحصوه - وقد أتاح لهم هذه الإمكانية - عادوا خائبين . فكان انعقاد المؤتمر الأول للكائنات الطائرة -من غير الطيور- حدثا عالميا فريدا يماثل ثورة المعلوماتية والاتصالات التي حلق بها بيل غيتس عاليا، ويماثل ثورة الجينيوم واكتشاف الشفرة الوراثية، وقد يفوق آليات الاستنساخ المريكة... بل ربما أعظم !

قال الأول: سنسبح أحرارا في الفضاء الواسع وننشىء بيئة نظيفة جديدة .

قال الثاني: (مقطبا) بل سنلوث الفضاء العاري منا، ونجرم بحق السماء .

قال الأول: في هذا الاكتشاف -الاختراع فتحا مبينا ومدخلا أثيرا سيمكننا من الارتقاء بالجنس البشري الى مستوى جديد من التطور والتقدم والحضارة .

قال الثاني: في هذا الاكتشاف-الاختراع سينتهي عهد الانسان العادي في نظامنا المعرفي والقانوني ليبرز الانسان الطائر بتعقيدات هذا البعد الجديد على الصعيد القومي والعالمي أمنا واستقرارا .

كان الجدل يحتدم بين أعضاء المؤتمر الذين تفرقوا ما بين داعم لتطبيق الفكرة على البشرية جمعاء، و بين من يصر على إبقائها سرا عسكريا قوميا، وبين رافضها رفضا مطلقا لأنها ضارة بالعلاقات الانسانية ومستقر القيم والأعراف ... ستكثر السرقات وحوادث الارتطام الفضائي وسنستغني عن مليارات الاستثمارات في وسائط النقل وستتفشى البطالة في قطاع النقل وقطاع الاتصالات السلكية واللاسلكية، وسيتضرر الأمن القومي ! وسيفقد حتى

الإنترنت قيمته لأن طيران أي شخص لأي مكان يصبح اكثر متعة واكثر تحديا واكثر عمقا واكثر شخصية من مواجهة شاشات ذات واقع افتراضي .

قال الثاني: سنفقد التحكم في المعابر والحدود وسيصبح الفضاء فوضى البشر على حساب سلطة الحكومة، وسيفقد المجتمع قدرة التحكم في أطفاله ونسائه وتصبح الحرية متاحة للجميع ؟؟!

قال الأول: وهل الحرية شيء مخيف الى هذه الدرجة ؟!

ما زال يحوم حول رؤوسهم، يضحك أحيانا، وينقبض أحيانا، فالكلمات التي تدور في القاعة القليل منها متفائل ومؤيد، والكثير منها محبط، والمعارضة تشتد وتربو لمصلحة الانضباط الوطني والالتزام القومي ؟! وقصر الاكتشاف-الاختراع على الأمور العسكرية والتجسس وجلب المعلومات؟!

لم تفد الأيام الثلاثة المثيرة في توصل المؤتمر لقرار فانفض على عادة المؤتمرات المنعقدة في الدول العربية أو دول العالم الثالث دون اتفاق ! ولكن القرار الوحيد الذي تطوعت باتخاذه أجهزة الأمن القومي هو اعتقال الكائن الطائر وما هو بطائر وإيداعه السجن ؟!

كانت الأفكار في رأس محمد تهطل عليه كالودق الساقط من بين الغيوم، وتتراكض بسرعات متفاوتة، يلتقط بعضها وتتسرب من بين أصابعه أخرى، وتهمل ثالثة، يرتب أجزاء مما التقطه، ويشغل الشاغر من الأماكن في متاهة الفكرة، ويعود وينظر من جديد ... أفي ذلك منطق ؟ أفي ذلك معقولية ؟ أفي ذلك صواب ؟ أفي ذلك خيال ؟ وتعود الأفكار تتراقص، تلمع، تنطفىء، تشتد، تخبو .... ويعود رأس محمد مجهدا، إنه يخشى على أفكاره من السجن !

■ ■ ■

• في حضرة الخليفة المستظهر بالله •

في العام 1099 ميلادية وفي 7/15 من ذات العام تحديدا، سقطت مدينة القدس، مدينة السلام، بيد جحافل الفرنجة الغزاة، الذين انساحوا في المدينة بعد أن حاصروها، وبعد مقاومة شديدة دخلوها من خلال الحي اليهودي.

كان الفرنجة الساعون للمجد والثروة والسرقة والنهب تحت شعار الصليب قد عاثوا فسادا أثناء اجتياحهم للمدن والقرى عبر آسيا الصغرى منذ العام 1096 ميلادية واحتلالهم لأراض فيها وعلى طول الطريق وصولا للقدس .

ولم يسلم من فظائعهم وشرورهم وأذاهم لا المسلمين ولا المسيحيين الذين لاقوا القتل و العذاب والهوان والسلب والنهب وهتك الأعراض وسرقة أموالهم وأراضيهم في فظائع عز نظيرها حتى وصفهم الكاتب المعروف أسامة بن منقذ (بالبهائم) على ما ارتكبوه من مجازر، وقال فيهم الكاتب الفرنجي (ألبير دكس) أنه: (لم تكن جماعتنا لتأنف وحسب من أكل قتلى الأتراك والعرب، بل كانت تأكل الكلاب أيضا) .

شوارع مدينة القدس تمتلئ بالجثث، والمعارك مازالت محتدمة عند أطراف المسجد الجامع، في العصر توقفت العمليات الحربية ولم تعد راية الفاطميين البيضاء-الذين كانت لهم حامية في المدينة- لم تعد ترفرف إلا فوق أحد الأبراج المحصنة وهو برج داود .

يصل رسول (صنجيل) أحد قادة الفرنجة إلى افتخار قائد الحامية الفاطمية، وبعد أن يُؤْذَن له بالدخول يدور بينهما الحوار التالي:

الرسول: (مخاطبا افتخار) إن سيدي (صنجيل) يعرض عليكم الخروج من المدينة المقدسة بأمان مقابل أن تسلموا البرج .

افتخار: كيف أسلمكم البرج، وأنتم غير مرة نكثتم بعهودكم ؟

الرسول: إن سيدي كما تعلمون مازال خارج الأسوار، والقادة الآخرون هم الذين ينتهكون حرمات الناس ويقومون بنهبهم والتنازع على بيوتهم، أما نحن فلا نفعل ذلك، وسنفي بعهودنا .

لم يكن أمام افتخار في ظل الموقف إلا الاستشهاد -وما هو أهلٌ لذلك- أو الانسحاب مع جنده سالما، تاركا مصير المدينة بين يدي من لا يعرفون للعهود حرمة متأملا صدق (صنجيل) معه، ومع الأهالي، فاختار الرأي الثاني وبلّغ الرسول موافقته على الخروج .

خرج رسول (صنجيل) مسرعا ليبلغ سيده الخبر السار . ويلتزم (صنجيل) - على غير عادة الفرنجة منذ دخلوا بلاد العرب والمسلمين - بتأمين خروج الحامية المستسلمة المنهزمة، وما أن يتم ذلك حتى- وكما يقول المؤرخ العربي الشهير ابن الأثير- (ركب الناس السيف ولبث الفرنج في المدينة أسبوعا يقتلون فيه المسلمين، وقتل الفرنج في المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا) !!!؟

كان على أثر السقوط الدموي للقدس أن هاجرت جموع كثيرة من سكان ساحل الشام إلى دمشق .... في دمشق استقبل قاضي المدينة الورِع ذو الأصل الأفغاني أبو سعد الهروي اللاجئين اللبنانيين والفلسطينيين والأردنيين، وقرر قراره على أن يسير بهم إلى بغداد حاضرة الأمة وزاهرة العرب حيث ديوان الخليفة المستظهر بالله العباسي .

في القدس يُجْمِع الفرنجة على اختيار (جود فروا) البلجيكي كأول حاكم فرنجي (صليبي) للقدس في التاريخ . يجلس (جودفري) كما أسماه العرب في كامل أبهته، وحوله الفرسان من طوائف الصليب المختلفين، وبعد أن أقفرت القدس وخلت من الرجال والنساء الذين إما قتلوا أو سبوا أو هاجروا.

جود فروا: (يصيح في رجاله) هل تم طرد جميع الكهنة المسيحيين من الطقس الشرقي: روم وجورجيين وأرمن وأقباط وسريان من كنيسة القيامة ...أم ماذا؟؟

أحد رجاله: نعم يا سيدي، لم يبقَ منهم في كنيسة القيامة أحد وأحضرناهم للمثول بين يديكم كما أمرتم.

جود فروا: (صائحا) أدخلوهم .

يدخل رجال الدين المسيحي الفلسطينيين، وممثلي الطوائف الشرقية والحزن بادٍ على محياهم، حاسري الرؤوس، في عيونهم يلتمع القلق ويقافز الوهن ويقفون جنبا إلى جنب على يمين عرش الملك المتوج حديثا، لا يفكر إلا في السطوة والبطش والغنائم والمجد والإرهاب .

جود فروا: (موجها كلامه لرجال الدين المسيحي الشرقيين) عليكم أن تكفوا عن الهرطقة، وعليكم العودة للدين الصحيح .

رجل دين فلسطيني: نحن لا نهرطق يا سيدي، بل نعبد الرب كما علمنا ذلك الكتاب المقدس .

جود فروا: (مقاطعا) كف عن هذا الهراء ! وارتدع، فأنت في حضرة ملك القدس، وعليكم جميعا أن تدلونا على مكان الصليب الذي مات عليه المسيح .

رجل دين آخر من الطقس الشرقي: لا علم لنا بمكان الصليب .

جود فروا: (صائحا بحنق) إما الصليب والتوبة وإما الصلب .

يصمت الكهنة الوقورون، وينظرون إلى بعضهم بعضاً، ثم ينظرون باتجاه الملك الصلِف متوقعين شرا مستطيرا، ولا يخيب في ذلك ظنهم فما أن مرت دقائق لم يتفوه أي منهم بكلمة حتى صاح جودفري في جنده مغضبا .

جود فروا: قيدوهم وألقوا بهم في السجن، وخيروهم بين التوبة والعودة للدين الصحيح والإقرار بمكان الصليب أو العذاب والسجن .

وهذا ما حصل حيث لاقي الكهنة الوقورون أسوأ معاملة وأخس مكافأة لرجال القدس الأتقياء الذين يذوقون العذاب بأدوات عصور الظلام الإفرنجي الرهيبة.

كانت أخبار القتل والتشريد والتعذيب والسبي والسلب تصل إلى دمشق عبر المهاجرين، الذين فَجَعوا المدينة بأحزانهم، ولما كان الأمل في حاكم دمشق التركي مفقودا توجه القاضي أبو سعد الهروي مع وفد من اللاجئين العرب إلى بغداد قاصدين السلطان (بركيارق) والخليفة العباسي المستظهر بالله .

لقد كان المستظهر بالله عبارة عن صورة،ألعوبة في يد الأمراء السلاجقة الأتراك لا حول له ولا قوة... فمنذ أن حكم السلاجقة الأجلاف البلاد العربية والتركية والفارسية ومهابة الخلافة أصبحت في الحضيض، والأمراء الأتراك أنفسهم في صراعات دموية داخلية متصلة لا تنتهي .

بعد رحلة شاقة طويلة يصل القاضي الجليل والوفد المرافق قبل سقوط الشمس في دجلة، ويدخلون المدينة التي ينتشر فيها الجنود المتسكعين بالآلاف في الشوارع، وهم سكارى يعربدون على أهل المدينة . وما أن يستقر المقام بالقاضي وصحبهِ في أحد أحياء بغداد حتى يقوم أهل الحي كما هو شأن الأحياء الأخرى كل ليلة بسد منافذ الحي بحواجز ثقيلة من الخشب والحديد منعا لاعتداءات الجند السكارى الليلية .

كان منظر انعدام الأمن في عاصمة الخلافة أول ما أوقع الصدمة في نفوس الوافدين على العاصمة ... فكيف سيقوم السلطان الذي لا يحمي عاصمة الخلافة أو الخليفة بصد العدوان على أراضي الدولة العربية والإسلامية، وهو لا يستطيع حماية العاصمة ؟؟

ما ان ارتاح الوفد من وعثاء السفر وأخذ يعد العدة لمقابلة السلطان حتى علم الصدمة الثانية والمتمثلة بعدم وجود السلطان (بركيارق) في بغداد، فمع محاولات القاضي الهروي الحثيثة للقائه إلا أنها باءت جميعا بعد أيام انتظار مقدمِه بالفشل الذريع، فالسلطان يخوض حربا شمال فارس ضد أخيه (محمد) –الذي سيستولي لاحقا على بغداد –وحيث تناوب الأخوين في واحدة من أرذل مراحل التاريخ على حكم بغداد في صراعات ثنائية متبادلة لثمانِ مراتٍ في

ثلاثين شهرا، لقد كان لبغداد حاكم كل 100 يوم !! والفرنجة في تقدم دائم، ويصور ابن الأثير هذا الواقع الأليم والبائس بشكل ملطف بليغ فيقول (واختلف السلاطين فتمكن الفرنج من البلاد) .

ذهبت محاولات (أبو سعد الهروي) أدراج الرياح، فلم يستطع مقابلة السلطان، وعزم على لقاء الخليفة الذي كان مشغولا حينها بتزويج ابنته، فلم يتمكن من الحصول على الإذن بلقائه .

وكان الشهر الفضيل شهر رمضان قد حل بما يوافق أغسطس من العام 1990 وأعمل القاضي ذهنه ولم يجد بُداً من استثارة حمية المسلمين ليقابل الخليفة، فجلس في جمع اللاجئين المرافقين القادمين من القدس وجوارها في المسجد الجامع في بغداد وذلك وقت صلاة الظهر والناس صيام، والجند بالبزات العسكرية رغم شهر الصوم العظيم يجولون بالأسواق وينهبون المحلات بشكل منظم، جلس ووضع طعامه وأخذ يأكل علانية وأمام جموع المصلين .

تعجب المسلمون من هذا الشيخ الوقور الجليل الذي يفسق في شهر الصوم ويرتكب إثما كبيرا، فثارت حميتهم التي لم يستثرها سقوط البلاد في أيدي المحتلين الأجانب .

أحد الداخلين للصلاة: ماذا تفعل أيها الفاسق، أتفطر في شهر رمضان الفضيل وجهرا دون خجل ! اتقِ الله وارعوِ، وحافظ على حرمة الشهر الفضيل.

مصلٍ آخر: أتفطر منتهكا حرمة شهر الصوم وفي الجامع ؟ يا لك من زنديق. أيها الناس استدعوا الجند للقبض عليه؟

تنفض الصلاة ويتجمهر المصلون على (أبو سعد الهروي)، ويهمهمون وينتشر اللغط، فالكل يستنكر فِعلَة هذا الرجل بادي الوقار، الذي تدل هيأته على علائم التُقَى والورع، إلا أنه ويا للغرابة يستمر في الأكل، فيعمد عدد من المصلين إلى الخروج من المسجد الجامع لاستدعاء الجند للقبض عليه، ينتظر أبو سعد

الهروي حتى يتحلق حوله ومن معه عدد كبير من الجماهير، ليترك طعامه جانبا ويقف وسط الحشد خطيبا بصوته الجهوري النافذ المؤثر:

أبو سعد: الحمد لله والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وإمام الحق والمجاهدين محمدا عليه أفضل الصلاة والسلام .

الجمهور: عليه الصلاة والسلام .

أبو سعد: أما بعد، لقد رأيت منكم عظيم الاستنكار لإفطاري في شهر رمضان، واستثيرت حميتكم الدينية لرؤيتكم لي أتناول الطعام، ودون أي أمر من أحد حاول جميعكم ردعي ومنعي عما أفعل . نعم إنه لعجب عجاب ومنكر مستنكر ما ترون لو كنت في غير سفر، ولكنكم متعجلو الحكم، بطيئو الفهم، سريعو الغضب في غير محله، لقد استنكرتم دون علم، وعلمتم ما هو أعظم وأفظع ولم تفهموا أو تغضبوا أو تستنكروا ...إن الأمة في خطر لم يعد السكوت معه إلا جاهلية ...

بدأت الجماهير تهدأ مع وقع رنين الصوت البديع، ومع كلمات القاضي الجليل التي تدخل القلب، ومع حماسة نبرته ...فبدؤوا يصمتون شيئا فشيئا ويصيخون السمع .

أبو سعد: إن الأمة بأجمعها تتعرض للبتر والبطش، وأرض المسلمين وذراريهم أصبحت مغتصبة ومنتهبة ومسبيَّة للفرنجة الأغراب الذين عاثوا في الديار فسادا حتى خاضت خيولهم في دماء المسلمين في القدس وما جاورها حتى الركب، لقد جئناكم مستغيثين لإخوان لكم فقدوا الأرض وفقدوا العزيز فهل من مغيث ؟! لقد جئناكم مستغيثين لإخوان لكم فقدوا الأب والأم و الابن فهل من مغيث !! لقد اعتدي على مقدساتكم، على مسرى النبي محمد وأولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين فهل من مغيث أم ستظلون لاهين عابثين غائبين مغيبين، الغوث يا أمة الإسلام، الجهاد الجهاد يا أمة الجهاد .

لم يكمل الشيخ حديثه حتى كان الجند قد أحاطوا به ونقلوه إلى صاحب الشرطة، وكان الأمر قد وصل إلى قصر الخليفة العباسي المستظهر بالله، فأمر بإحضاره للمثول بين يديه .

وإذ يدخل القاضي الجليل ولفيف اللاجئين القصر الفخم الفسيح بين صفوف من الخصيان السود والبيضان والذين يشكلون حرس الخليفة الصُوَري وخدمه، فإنه يدخله حاسر الرأس حليقَةُ علامةً على الحداد ويعقبه ثلة من الشيب والشباب حليقي الرؤوس أيضا .

أبو سعد الهروي: (صائحا) السلام على مولانا أمير المؤمنين ....

الخليفة: وعليكم السلام .

أبو سعد الهروي: (بصوته الجهوري) اسمحوا لي يا مولاي أن أعبر عن عجبي الشديد بعيشكم في رغد وأمن وإخوانكم في الدين من رعاياكم بلا مأوى ولا مدد . كم من دماء سفكت وأنهار منها سالت، وكم من نساء أهينت و حُرُماتها بانت، وأنتم بين الزهور والرياحين والنوافير والغلمان والطنافس والخمائل تتنعمون !! أليس من آذان تسمع أو عيون ترى وتخشع !؟

جمهور اللاجئين: الله أكبر على من طغى وتجبر، الله أكبر على من طغى وتجبر .

أبو سعد الهروي: لقد ذُلَّ المسلمون، رعاياكم يا مولاي، وأُعمل السيف فيهم، ونهبت أموالهم وأرزاقهم، وسُلِبت أراضيهم وأراضي الخلافة، وهذه جموع المسلمين من مشردي طرابلس والقدس وعكا وبيروت يستصرخونكم العون، والمدد . الغوث الغوث يا خليفة سيد الخلق، الغوث الغوث يا خليفة نبي الأمة . لقد قتل الفرنجة الأغراب في القدس وفي ساحات المسجد الأقصى مايزيد على السبعين ألفا . الغوث الغوث يا خليفة بني العباس .

جمهور اللاجئين: (باكين) الله أكبر، الله أكبر، الغوث الغوث يا خليفة نبي الأمة .

لقد مرت الدقائق على الخليفة كساعات طوال ثقيلة بطيئة قاتلة، كأنها الدهر بحاله، فلم يكن للمستظهر يوما اهتمام بالسياسة أو شؤون الحرب أو قضايا الأمة أو العباد . وهؤلاء العامة الذين عكروا مزاجه الأمبراطوري الورديّ يجبرونه أن يفكر !! ويتصرف كولي أمر لأمة ليس له منها إلا شرف النسب، وليس له فيها إلا سطوة الأمر-المشكوك فيها- على بضعة آلاف من الخصيان السود منهم والبيضان، يخاف أحيانا ان يدس أحدهم السُّمَ في طعامه إذا ما تجاوز حدوده مع السلاطين الأتراك أو قادة الجند الأتراك أيضا .

لقد كان استياء الخليفة مضاعفا فهو أضعف من أن يتخذ خطوة أو موقفا، وجُلّ اهتمامه الآني منصرف بالكلية لتجهيزات زواج ابنته . ولكن جلل الخطب رغم ذلك أدمعه وأبكاه .

الخليفة: (باكيا) قاتل الله الفرنجة، ولعنهم الله لعنة بالغة، لقد بكيتم وأبكيتمونا ....أيها الحاجب، إليّ بقلم ودواة !!

في هذا العصر أصبح الخليفة الذي طالما كان فخر العرب ومرجعية أمة المسلمين أصبح تجسيدا حيا ورمزا مبينا لانحطاطهم، والمستظهر بالله الذي توقع منه لاجئو القدس وجيرانهم معجزة هو ممثل و سليل هؤلاء الخلفاء الخاملين . إنه عاجز حتى لو شاء عن نجدة امرأة تستغيث به على بعد أمتار من باب القصر فكيف بنجدة المدينة المقدسة، أو إعلان الجهاد على الفرنجة الغزاة؟!

رفع الخليفة سليل الحسب والشرف، رفع يده اليمنى حاملا القلم وحطه في الدواة، رفع يده وخط في رقعة أمامه (أمراً) - ومن أين له الأمر ومن أين له النّهي- جعل وجوه القوم الراكعين الباكين المستغيثين تتجمد كالجليد، وجعل حواجبهم تصل إلى ما فوق جباههم، وجعل عيونهم الدامعة المحمرة تكاد تقفز من محاجرها وتتدحرج أمام أقدام صاحب المقام العالي ؟!

لقد خط الخليفة العاجز الخامل المنكسِر (أمراً) تضمن تشكيل لجنة !! نعم تشكيل لجنة من أصحاب المناصب الرفيعة في البلاط وذلك للتحقيق في الأحداث المفجعة .

في العام 1187 يدخل القائد العربي الناصر صلاح الدين الأيوبي مدينة القدس في جموع مكبرة مهللة بعد 100 عام من احتلال الفرنجة لها دون أن يجد أثرا للمستظهر بالله أو لجنته أو دواته في القدس أو التاريخ .

■ ■ ■

• لذيذ ويا ليته يزول !

ما هو الشعور الذي يتلبسك حتى يخنق خلاياك جميعا، وتظن نفسك معلقا في ذيل طيارة أو محرزا في فوهة بركان يستعد للثوران ؟

عواد: (متأملا ويحك شفته السفلى وينظر عبر النافذة) إنها مشاعر كثيرة وليست قليلة تلك التي تعطيك مثل هذا الشعور !

مصطفى: (محاولا حصر الموضوع) إنه الشعور الذي عندما ينتابك تستلذ به، ولكنك تتمنى أن يزول ؟

عواد: (تبتسم عيناه بخبث) لا أريد أن أقول !!

مصطفى: لم أقصد ما فكرت فيه لأن ذاك الشعور مما تتمنى وأتمنى ألا يزول ! إنما الذي أقصده يجعل قلبك متوثبا متذبذبا متأرجحا شمالا وجنوبا، وفى نفس الوقت يجعل من ذهنك صفحة بيضاء تحدق في اللا شيء، تروم النوال وترجو عدم الزوال، تسعى للأمان وما أنت بمحققه !

عواد: لاأعرف . بكل بساطة لقد وترتني وحيرتني وأقلقتني !

مصطفى: هو ذاك !! ولأكون أكثر وضوحا سأسرد عليك هذه الحكاية: في سالف العصر والأوان كان صاحب متجر يذهب يوميا مشيا إلى عمله كما هي عادته، ويسلك دوما طريقا محددا ومسربا أليفا، كان من أولئك الذين يتبعون المثل الشعبي القائل (امش الحيط الحيط وقول يا رب الستيرة)، فكانت الخطوات القليلة التي تفصل بين بيته وعمله مجالا فسيحا لاستنشاق عبير السرور والسعادة، والنهار البديع، وروائح

موظفات البنك المجاور . خال الذهن من كل معكر أو موتر أو مقلق، يرضى بقليله كما يرضى بالجلوس ساكنا لساعات فوق مقعده الخشبي المتآكل لم يغيره منذ عشرين عاما . إن أبا محمود يعمل في بيع أنابيب وأدوات التمديدات الصحية، يجلس خلف طاولته التي يستريح فوقها قلم ودفتر كبير، يشرب الشاي المحلى بأربع ملاعق سكر ويستجيب العامل النشط في متجره لطلبات الزبائن ... هدوء ورتابة لذيذة ونفس مطمئنة وسباحة في نهر السلاسة، صفاء درة وضياء ثلج .

في يوم من الأيام دخل على أبي محمود صديق له قديم _ كان فلسا فأصبح دينارا _وتكلما طويلا عن الأهل والزوجة والعيال والمال والأيام والفقر والغنى والغيوم وأسعار الخس والعنب والبصل، وتحدثا عن تقلبات الطقس ومهرجانات الصيف وثياب النساء التي تحجم عن الستر والطرق الالتفافية ومدى جدية (باراك) في الانخراط بالعملية السلمية، والشرطة في الشارع وأهمية البليلة والترمس للجسم، وتأثيرات الهاتف الخلوي على الذاكرة، وسعر الدينار، وأحسن محل فلافل في البلد وسبب القلق البادي في عيون الأطفال قبل الكبار . وبعد أكثر من ساعتين من الحديث المتواصل اعتصرت فكرة خبيثة مخ الصديق وقفزت من فمه لتطرق طبلة أبي محمود حيث قال: لماذا لاتغير محلك القديم هذا، والذي لا يكاد يفي بمتطلباتك اليومية ومتطلبات عيالك الذين يكبرون وتكثر معهم المصاريف ؟لماذا لا تقلبه إلى مطعم وجبات سريعة خاصة وأنت ترى مدى انتشار مثل هذه المطاعم وشيوعها ؟

كان العرض مفاجئا وكان الرد في المقابل صارما، قال أبو محمود: لا أريد أن أغير (كاري). كثرة من العيال، نعم ! وقلة مال، ولكني مع هذه السنين الطويلة أعيش العشق وراحة البال .

قال الصديق: إن موقع متجرك هام جدا ولو بعته أو قلبته إلى مطعم ستصبح غنيا و (الفلوس بين يديك مثل الرز)!

قال أبو محمود: لا أريد والله الغني .

قال الصديق: على كل فكر جيدا، وأنا على استعداد لمساعدتك في ذلك ... واستأذن خارجا .

وهنا لمعت الفكرة في ذهن عواد وانفلت قائلا: لقد وجدتها فأنا خليفة أرخميدس .

مصطفى: من هي يا فصيح الفصحاء وذكي الأذكياء ؟

عواد: وجدت الرد على سؤالك .

مصطفى: إذا ليس هناك هي، فما هو الرد ؟

عواد: انه التوتر المشرب بالقلق والمغطس بالحيرة، انه الشد وان شئت الانشداد، إنها المشاعر التي تنتاب الشخص حين يرى الطاقة تنفرج أمامه، ويرغب أن يلجها، ولكنها من الصغر بحيث لا يستطيع أن يحشر نفسه فيها إلا إذا أصبح بحجم القط . انه يريد ولا يريد، يرغب ولا يرغب، مشاعر متضاربة، قزحية اللون، مشاعر تضيء الطريق وتعتم المسار الذي يسلكه الشخص، هل يفقد الاطمئنان وينطلق أم يبقى في واقع اللاشك ويرفض الغد الحذر ؟؟

مصطفى: سأجيبك عن مدى صحة ردك بتكملة الحكاية ... كان حديث الصديق القديم والثري الجديد مؤثرا حتى أنه قلب مزاج أبي محمود الذي يتمتع بمزاج مستقر عادة، وهدوء عجيب يصل أحيانا لحد البلادة،بحيث أن الأحداث الكبار والمشاكل العويصة والقضايا التي تستعصي على المخاتير كانت تبدو له بتفاهة عقب لفافة تبغ رديئة، وتمر عليه الأيام وهو ملموم .

انتثرت الأفكار القديمة في رأسه على مساحة الوجع المندثر في زوايا النسيان، فانتفضت وتساقطت كأوراق الشجر في خريف القدر، نبتت في رأسه شجرة نخيل يافعة خضراء مثمرة، بدأ يتسلقها ويمد اليد تلو الأخرى عله يلتقط بلحا أو رطبا أو تمرا .

تمددت أفكار الصديق القديم في رأسه بشكل سرطاني دمر كل الأفكار القديمة، وأحل مكانها كل ما هو وردي أو زاهي . لقد أصبح الخطو مرفوضا والطيران فوق السحاب هو فقط المقبول والمأمول . دقت في قلبه طبول الرغبة حتى حجبت كل الأصوات،فقد سمعها ووقف يصرخ فوق منصة أفكاره:لا أريد أن أسمع الأصوات الأخرى، وأصاخ السمع لما يريد ونحى جانبا ما لا يريد، سمع رنين الذهب وصخب الثراء ونعيم الرياش وألق الزبرجد وسخونة فنجان (النسكافيه) وطرافة اللحظات القادمة ولذة الفرصة الملوحة بيدها من البعيد أن أقبل، وأهمل صوت باعة الخضار والحليب والترمس والشاي،وصوت البارحة الفاتر .

لقد أباح ذهنه للتفكير في النقلة التي من الممكن أن تحدث له حين ينقلب حاله من الجلوس على الكرسي الخشبي الذي يؤذي عظام الظهر والآليتين إلى الجلوس على كرسي جلدي وثير، وحين يتذوق طعماً مغايراً لطعم إدمان الفلسطينيين للفلافل ... قال في نفسه (ومالو طعم الهامبورغر !) فالكل يأكلها ويتجرع علبة الكولا، ويتجشأ ؟! وهل أحرم نفسي من لحظات التجشؤ اللذيذة كما شأن عباد الله أجمعين؟ لطالما رغبت في تغيير الوجوه الخشنة لزبائن عرفتهم منذ عشرين عاما، و(بالمرة) بدلا من أن أمد بصري إلى وجوه الغاديات الرائحات للبنك المجاور لمتجري يصبحن بوجوههن الناعمة وقدودهن الفتية من زبائني الدائمات.

أصبح في حالة متوسطة بين القبول والإحجام، وما دامت المقارنات في ذهنه قد بدأت تتخذ حيزا واسعا فالفكرة الجديدة انتقلت في رأسه من مرحلة الإدراك والاهتمام إلى مرحلة التجريب ... انه على أعتاب اتخاذ قرار حاسم ومصيري، انه يتأرجح بين التبني والرفض، هل سيتحول من تاجر أدوات صحية إلى صاحب مطعم وجبات سريعة ؟! لا،لن أفعل . هكذا صرخ في فضاء نفسه بعد أربع ليال عجاف كان النوم يفر فيها من تحت جفونه، كما تفر الأبقار الوحشية من وجه قسورة،قلق وأرق ورغبة في التغيير، وخوف يصرع أشد

الكباش بأسا من التغيير ... تهالك على كرسيه الخشبي في اليوم الخامس وهو نصف يقظ ونصف نائم ومد يده الخدرة لكوب الشاي مازال يحدق فيه منذ أكثر من نصف ساعة، أخطأ إمساك الكوب فانسكب السائل على يده وعلى الدفتر الموضوع على الطاولة... (خير اللهم اجعله خير) هكذا كان رد فعل صديقه وهو يدخل المتجر باندفاع وثقة بعد غياب طال واستطال،وبعد أن ألقى السلام أردف قائلا: ها... ماذا قررت ؟!

عواد: إنني أعلم ماذا قرر، لأنني عشت مثل هذه المشاعر اللذيذة المقلقة، والتي تمنيت رغم لذتها أن تزول ! وذلك حينما جاءتني الموافقة على منحة دراسية في إيطاليا لمدة سنتين، وعشت في صراع متواصل بين إغراء وأهمية المنحة لمستقبلي المهني وبين أنني سأفارق أسرتي لسنتين مؤرقتين هامتين في حياتي وحياة زوجتي وحياة طفلتي الحابية.

أطرق مصطفى ولم يتفوه بكلمة،ونظر في عيني صديقه بإشفاق شديد، أدار زاوية الرؤيا فانتبه إلى الرصيف القريب تتوسطه علبة كولا فارغة ملقاة بإهمال، فقام من مقعده ومشى خطوتين وحنى ظهره إلى الأمام والتقط علبة الكولا ووضعها في سلة النفايات .

■ ■ ■

• ما بين فاس ورام الله مسافة ليست طويلة!

وقَفَت في أقصى الأمة في المغرب، لربما كانت تقف عند نفس الصخرة التي وقف عليها موسى بن نصير أو طارق بن زياد في سعيهما لنشر راية الحضارة العربية الإسلامية في بلاد الظلمات والتخلف ما وراء الماء . وقفت على نفس الصخرة التي انطلقت منها أو من جوارها الجيوش الفاتحة لتقطع البحر نحو المجهول مسلحة برسالة التوحيد والمحبة والسلام .

لربما تكون نفس الوقفة، ولكن الزمن غير الزمن والحال غير الحال ...في ماذا فكر القائد العربيَ موسى بن نصير آنذاك، وبماذا تفكر هي الآن ؟! كيف

كان ينظم منطلقاته هو آنذاك، وكيف تنظر هي لطبيعة الحال الآن؟! الزمان غير الزمان والحال غير الحال، ولكن الأمل والسعي يُسقِطُ دوما المحال ويقرب البعيد ويجيب على السؤال ويحقق الأماني.

وقفت عائشة بن محمد تصرخ في حشود المتظاهرين الكثر الغاضبين المتضامنين مع انتفاضة الأقصى في فلسطين إثر تدنيس مجرم الحرب شارون لباحات المسجد الأقصى في 2000/9/28، وانطلق لسانها كما لم ينطلق لسان طارق بن زياد خطبة هزت المشاعر وجذبت الآذان واستدعت الصمت ووترت القلوب وألهبت الحناجر.

في مدينة رام الله وفي الشارع الرئيسي قرب مسجد جمال عبد الناصر، وقفت الأم مع ابنتها الصغيرة تنظر من بعيد إلى موكب شهيد انتفاضة الأقصى، أحد شهداء انتفاضة الأقصى، فسألتها ابنتها الصغيرة أماني: لماذا يرفعون رجلا ملفوفا بالعلم الفلسطيني فوق الأعناق ويصرخون ؟! لماذا يصرخون بهذه الشدة ولماذا كل هذا الصخب ؟! فتأملت ابنتها الصغيرة أماني بعد أن كررت سؤالها مرتين وتعجبت ! فلم تكن لتتوقع مثل هذا السؤال من صغرى بناتها وكانت تتوقع سؤالا عن الموكب أو الشهيد او طلبا لحاجة ؟! فصمتت.

في مدينة فاس بالمغرب الأقصى سمعت عائشة بن محمد سؤال الابنة لأمها في رام الله فصرخت: إنهم يصرخون عشقا، ويصيحون ولعا، ويفيضون حبا، ويتألمون كثيرا ويفرحون، ويتوجعون كثيرا ويضحكون، يصبرون كثيرا وينشدون، من عمق القسوة الفاصلة بين فاس ورام الله يصرخ الفلسطينيون عسى صرخاتهم تغشى المحيط ولعلها تلف الخليج وتنتشر ما بينهما من بلاد أمة العرب، إنهم يصرخون انتعاشا ومحبة، ويصيحون صمودا وطهرا.

نظرت أماني نحو المسيرة ثم رفعت بصرها إلى السماء ودون دهشة قالت: إني أرى امرأة تنظر إلينا من فوق !! فجذبتها أمها من يدها وقالت: أين فوق ؟! فأعادت عليها القول ونظرها مسمر على حد السماء ..نظرت الأم بعد تململ حيث ألقت ابنتها البصر، نظرت إلى السماء فإذ بها تحتضن عائشة ومليون

مغربي غاضب يرفعون أعلاما ورايات، ويرفعون لافتات وشعارات .... يسيرون بهدوء واتزان وتعلو وجوههم علامات الثورة، فقالت أماني الصغيرة لأمها: لم اعد احتاج لإجابة فالآن فهمت لماذا يصرخون والشهيد مرفوع فوق الأعناق !!

ابتسمت عائشة وهي تسير في موكب مهيب في مدينة رام الله وركضت نحو الصغيرة أماني وقبلت يدها، وألقت التحية على أمها، أم أماني، وقرأت الفاتحة على روح الشهيد، ورفعت علم العروبة علم فلسطين، وسارت مع الحشود تنظر ما بين فاس ورام الله مسافة ليست طويلة، إنها ليست طويلة هكذا قالت .

▪ ▪ ▪

• مات ولم يعلم لماذا

صرخ الطفل في وجه أمه وقال: أريد أن أشتري طيارة تطير، ثم بكى .

نظرت أمه الى وجهه الباكي وبكت . فمن أين لها أن تأتيه بطيارة وحالهم المادي مما لا يسر عدوا أو صديقاً. احتضنته وضمته وقبلته وقالت له أنها ستشتري له طيارة ورقية يطيرها متى يشاء ولكن حين ميسرة، فبكى وقال أنه لا يريد طيارة ورقية، فقبلته وقالت أن لا بأس عليك سأشتري لك طيارة من النوع الذي ينطلق من عقاله بقوة اندفاع اصطناعية، فرفض وبكى وأصر على أنه يريد أن يشتري طيارة تطير ! ولم تستطع أن تقنعه بأنواع الطائرات المختلفة التي رأتها على واجهة المحلات أو مع الأطفال الميسورين .

عاد فبكى وقال أنه يريد طيارة تطير ... فصفعته لأنه لم يبق لها من بديل فتوقف عن البكاء، وقال لها: أريد أن أشتري طيارة تطير كتلك التي في السماء، وبحجم تلك الرابضة بالمطار، فانفجرت أمه باكية ...لقد جن الولد .

لقد أصبح فلاح طيارا ولم يجن، اشترى مقعدا دائما في الطيارة فكان امهر الطيارين في بلاده حتى غدا اسمه فلاح الطيار وأمه أم فلاح الطيار وأخته أخت فلاح الطيار وحتى جيرانه كانوا يسمونهم جيران دار (أبو فلاح الطيار) رحمه

الله... كلما مرت به ذكرى اليوم الذي أصر فيه على والدته أن يشتري طيارة ازداد فخرا وكبرياء بنفسه فهو لا يمتلك الأرض وإنما يمتلك السماء، والتي فيها ينسى كل هموم الثرى ويحلق في الفضاء لا يحده حد ولا يعوقه مانع .

ولأن قوانين الأرض لا علاقة لها بعقلية الطيار هذه، أُعتقل أحد أصدقاء فلاح الطيار على أثر رأي سياسي يحمله مناهض للحكم، لقد كان يطالب بالخبز والديمقراطية، وهذا رأي سلمي ولكنه مخالف للحكومة والحزب الحاكم، وفي سجون العالم الثالث هنالك ثلاثة أسباب مشهورة لتدمير الانسان وإهدار كرامته وإجباره على الاعتراف بما يريدون، لا بما حصل هي: التعذيب الجسدي والتعذيب النفسي والتعذيب العائلي وكلها بالطبع مورست، فلا بد لكل أن يتقن عمله والله قد حبانا نحن المجبرين على العيش في العالم الثالث أن نتفنن فيما يضر، أما ما ينفع الناس فلا شأن لنا به، ننقله استهلاكا حضارة مادية ومعنوية وإعلانية من الغرب .

فُجِع فلاح الطيار باعتقال صديقه ولعلمه بشدة النظام والقهر في بلده فيما يتعلق بالسجناء السياسيين كان حذرا جدا فلم يطلب زيارة صديقه، خاصة بعد أن تعرض هو الآخر لتحقيق قاس ٍ على أثر اعتقال صديقه، ولكن الله ستر ولم يثبت أن له علاقة بأي فكر أو تنظيم او جهة معادية للحزب الحاكم والأمة، فهو منذ الصغر يحلم أن يطير أو يشتري طيارة، وقد تحقق حلمه وما كان لهذا الحلم أن يجير لحزب او تنظيم .... فنفد منها .

قلنا أن فلاح كان حذرا من أن يزور صديقه ولكن تكرار سؤاله عنه عبر أهله أخجله كثيرا فذهب لزيارته مضطرا، وبعد اتخاذ الإجراءات اللازمة لزيارته التي استغرقت أياما وكثير مساءلات، وقف في الردهة المخصصة للزوار ينتظر الإذن له بالدخول على صديقه فصادفه مدير السجن دالفا إلى مكتبه مارا بالردهة حيث لم يجد غير فلاح .

من بين حراسه الأشداء صرخ بفلاح أن أقدِم فتقدم وقلبه الطائر يكاد يسقط من الخوف، قال له مدير السجن: من أنت ؟ وماذا تفعل هنا ؟ فرد عليه بما هو

حق . فلم يعجب ذلك مدير السجن الذي تجاوزه و دخل مكتبه عابسا منفعلا- وهو بذلك يرسم وجهه وفق إمارات السلطة والقوة كما يظن- ثم خرج إلى الردهة ثانية و أشار غاضبا بإصبعه الوسطى إلى فلاح الطيار بأن يدخل مكتبه ففعل ....قال له ساخرا : لماذا يسمونك الطيار ولم يسمونك الصارم أو البتار أو الصرصار، هل هذا اسم عائلتك أم لقب ؟ فقال فلاح انه لقب وشرح سبب التسمية بأن حلم حياته كان مرتبطا بالطيران ....طرأت على ذهن مدير السجن تلك العلاقة الوطيدة بين الطائرة والطائر والطيار وتذكر طائره المفضل الحزين الذي يحتفظ به مسجونا في غرفة مكتبه فأمر فلاح الطيار أن ينظف قفص طائره لريثما يفرح إلى أن يجهز الموظفون الإذن لفلاح بالدخول على صديقه المسجون السياسي، أمره -وكأنه احد مستخدميه- وخرج في جولة عبر الزنازين.

استغرب فلاح الطلب ولكنه اتقاء لشر قد يكون اكبر صمت وعمل على تنظيف القفص للطائر الحزين بصمت .... عاد مدير السجن من جولته ليجد فلاح واقفا ينتفض كالطائر المبلل وقبل أن يعاجله بالسؤال عن سبب ارتباكه وسوء حاله نظر إلى القفص فلم يجد طائره ففهم الموقف على اعتبار أن مدير السجن لبيب واللبيب بالإشارة يفهم ...او على رأي المثل العامي (يفهمها وهيّ طايرة) .

لقد كان عقاب فلاح الطيار على تنظيفه القفص دون أن ينتبه لرغبة الطائر الحزين بالحرية والهروب أن جلس مكانه في القفص سنوات ثلاث، استطاع فيها أن يرى رفيقه السجين السياسي الذي تحاشاه كثيرا يوميا على مدى هذه السنوات .

بعد عشرات العرائض وعشرات المناشدات وبحر الدموع الذي ذرفته أمه أم فلاح الطيار على أعتاب مدراء السجون المختلفين استطاعت أن تستدل على مكانه، وأن تسترحم جلادي العالم الثالث أن يخرجوه فكان حظه الكبير أن خرج بعد ثلاث...

في السجن أقاموا له حفلة بسيطة واستطاع أن يحلق لحيته وان يهرِّب ملابسا جديدة عبر رشوة الحراس لبسها في يوم الإفراج عنه ....أمسكوه من كتفه والأصفاد في يديه وهو يرتدي البدلة الجديدة ومن مكتب الى مكتب لاستكمال إجراءات الخروج إلى أن وضعوه في نظارة التسفير، فلما قال لهم أنه من أهل البلد فإلى أين سيسفرونه ؟؟ هل سيسفرونه الى غير قريته ؟ وكيف ذلك ؟ طلب منه المأمور أن يكتب في ذلك فكتب، وهل هو مخير؟

وضع مأمور السجن كتاب فلاح وجواز سفره على طاولة زميله الذي لم يفتح الدرج مطلقا وبقي فلاح الطيار ثلاثة شهور في (نظارة) (التسفير) لا يدري هذه المرة لماذا أو كيف وصلت به الأمور مع الإفراج لهذا الحال حتى طار عقله ! لقد أهمله الضابط والمأمور والحراس والمستخدمون و أهمله حظه الطائر أو العاثر ليتواصل سجنه وإن بشكل آخر.

في اليوم التسعين فتحوا عليه الزنزانة وسحبوه من بين أربعين مسجونا في غرفة لا تتسع إلا لعشرين .... لقد مات . وهل لمثله حق أن يعيش ؟ نعم لقد مات. وهل كان يحق له أن يحلم أصلا بالطيران ؟ بالطبع لا . لذا كان من واجبه أن يموت ! وهل كان له أن يسترحم عبر أمه الخروج من سجنه ؟ بالطبع لا . لذلك مات . وهل كان له حق بأن يزور صديقه السجين السياسي الإرهابي المخرب ؟ قطعا لا . لذلك فإنه أدى واجبه بأن مات . وهل كان يجوز له أن يسمح للطائر الحزين المفضل لدى مدير السجن الهمام أن يفلت ويتحرر؟ بالطبع لا، لذلك مات . وهل كان يحق له أن يعترض على تسفيره خارج بلده ؟ أيضا لا لذلك مات .

هذا ما كان من رد مأمور النظارة لاستفسار بسيط قدم من رؤسائه مفاده: لماذا مات السجين فلاح الطيار في النظارة، وهو في طريقه للإفراج ؟

ولكن فلاح مات ولم يعلم لماذا ؟

■ ■ ■

• مجرد إجراء شكلي !

مجـرد إجـراء شكلـي، إجـراء روتيني، إجـراء بسـيط ...هـكذا قـالوا لـي عنـدمـا سألت عن متطلبات المعاملة، كان محدثي يتكلم ويبتسم ! وأراحني بذلك مما قد رسخ في ذهني من ان المعاملات الرسمية تأخذ فترة طويلة وأسلوبا مملا وشكلا مُكلا وانتظارا مُعِلاّ ومحبطا بل مقرفا ومهينا أحيانا ...مما قـد يصيب الشخص بالإمـسـاك أو الإسـهـال أو الضـغط وربما الجلطة أو شلل الأطفـال، ناهيك عن الاكتئاب.

إذن هو مـجـرد إجـراء بسـيط !! الحـمـد لله، لقـد ارتحت من هذا الكلام، فـذهبت إلى أحـد الكتبـة المنتشـرين حـول المكان، واشـتـريت الطوابع الـلازمـة وصـورت الأوراق المطلوبة وغير المطلوبة ...وقام الكاتب بملء الاستمارة وتدبيس المرفقات بالطلب ونقدته ما يعادل خمسة دولارات ...وتوكلت على الحيّ القيوم .

في مخيلتي ينطبع وجه حبيبتي الصبوح، تودعني داعية لي بالتوفيق والعودة بالسلامة وكأنني مسافر إلى وادي الثعابين أو سائر إلى ساحة حـرب أو سأحشر في مصيدة فئران!!

كـان يا مـا كـان في سـالف العصـر والأوان جـمـاعـة من الفـئـران تـعـيش في بحبوحة وأمان، إلى أن أصابها فقر شديد وجوع أكيد ...كانت الفئران تبيت على الطوى، ولم تستطع الخـروج من جحـرها المحـفـور في أرضـيـة بيت أحـد أثرياء الحي ... لقد أحكم الحصار على جماعة الفئران فلم تستطع منه فكاكا، المصائد في كل مكان والقطة تعسكر والطعام أصبح يجد سبيله الى ثلاجة المنزل التي أحكمت الاغلاق مباشرة من خلال البوابة الحديدية العالية .

استـجـمـعت شظايا نفسي وشجـاعتي أو مـا أمتلك من نُتَف شجـاعـة هي بي منثـورة ...وانطلقت باتجـاه مـبنى الوزارة ... إنه كبـيـر، عـال، يحـيط به الحـرس والعساكر مما أعطاه منظرا مهيبا ووقارا عجيبا أدخل في أوصالي رِعدَة شديدة وخوفا عميقا مغصني و(بعجني) ...ما شاء الله وما أراد كان إن الدولة بخير

والحكومة بخير والشعب إذن بخير وسلامة بخير وخير بسلامة ...هكذا حدثتني نفسي إثر مرأى المبنى الضخم الفخم الزخم المحروس جيدا .

تجاوزت البوابة الكبيرة العالية، التي لم يخلق مثلها في البلاد، ولما لم أشاهد أحدا يدخل منها أو يخرج ظننت أنها مخصصة لدخول وخروج سيارات معالي الوزير ووكيل الوزارة ومساعدوه وربما أيضا السادة المدراء العامون، ولم يخِب ظني أنا الظنان كثير الريبة والشكوك، فما كدت أتجاوز البوابة الحديدية الضخمة حتى انفتحت الكترونيا وانقلبت الدنيا رأسا على عقب، أصوات مرتفعة وهدير سيارات تتأهب للطيران !! ومجموعة من البشر، المواطنين، تتحلق حول رجل ذي بزة داكنة، منتفخ الأوداج أحمرها، تكاد رقبته تتمزق من اللحم، تبين لي لاحقا من تجهم وجه مرافقيه ورقم السيارة التي استقلها ولون لوحته المعدنية ونوعها وقتامة زجاجها وبريق هيكلها أنه معالي الوزير،الذي لو علم معنى الوزير لأطلق ساقيه للريح ينشد الخلاص ...أحدثت البوابة صريرا شديدا وانطلق الموكب المضحك مخلفا وراءه حشد من الناس بدا يتفرق وغبار شديد، وبيئة ملوثة هي من سمات ومميزات طرق عيشنا الرغيد .

قفز فأر شاب متحمس من بين أنين جموع الجوعى وجثث الصرعى وأعلن في مؤتمر صحفي وعبر مكبرات الصوت أنه لن يقبل بمثل هذا الحصار الجائر وهذه المهانة لكرامة جماعته، تشجع وتمرد واستأسد وطرد الخوف بعيدا وأصر على الخروج من بيت الوجل الذي يتملك الفئران منطلقا الى جوف المنزل والى المطبخ .

لم يصبني ما لا ابتغي من تدافع الناس حول معاليه ومن الغبار ورائحة الوقود المحترق من سيارات الموكب لأنني كنت أسير في الطرف الآخر من الشارع ..كان بجانب البوابة الالكترونية الحركة باب صغير يصلح لمرور الكلاب حتى ظننته مخصصا لكلاب معاليه ولكن ظني هذه المرة خاب ...إنه باب المراجعين من عباد الله المقهورين أمثالي ....دخلت من باب الكلاب عفوا باب المراجعين متجها إلى باب آخر أمامه، صوت عن يساري ينادي: يا أخ، يا أخ، نظرت إلى مصدر الصوت

فإذا هو منبعث من عسكري مرذول مسلول مسعول داخل كشك واطئ السقف، يشير إليّ بيده باستهتار أن أقترب منه ففعلت ..ودون أن ينطق حرفا قام بتفتيشي دونا عن خلق الله الرائحين والغادين !! عجبت من هذا المسلك وما للعجب في مثل هذا الموقف من حل إلا الامتثال والخنوع .

دخلت الباب المفضي الى مبنى الوزارة،ووقفت في القاعة أنظر إلى الجموع المتكأكئة على صف من الشبابيك لم أدرِ على أيها يجب أن أقدم طلبي، معاملتي البسيطة، الشكلية، سألت الأول فالثانيَ فالثالث من المراجعين ولكن دون جدوى فكل بشأنه مشغول، في ملكوته سابح .... يتراكضون بأنفاس لاهثة متقطعة وعيون زجاجية زائغة غائرة في يوم حر قائظ، تجمع بخار الماء المتصاعد مع زفير الناس على عدستَي نظارتي، نزعتها، مسحتها، فإذ بأحدهم يدفعني فيضعني في أحد الطوابير دون إرادة مني ...كانت صدفة أو دفعة في محلها، وبعد ساعة من الانتظار المقيت وصلت إلى موظف وراء مكتب تناثر على سطحه بضع أوراق، وزجاجة ببسي كولا من الحجم العائلي وكأس زجاجي، تجاهلني، صب من الزجاجة وشرب من الكأس وبين كل رشفة ولاحقتها يفغر فاه، مغارة كبيرة وعِرَة عميقة....(أح) تصدر من أعماق الكهف معلنا تلذذه بطعم الكولا، يلتقط أنفاسه، يرشف، يفغر مغارته، ثم يلحقها بالآح، وينظر في اللا شيء أمامه ...بعد دقائق مريرة ابتسم وقال: نعم . قلت: أنعم الله عليك بالصحة والمال وراحة البال والعافية والهناء والسرور والأعشاب العطرية الشافية . قال: (لا تكثّر حكي)، ماذا تريد ؟ فقلت مطلبي، عاد وابتسم وهذه والله ميزة محمودة في الموظفين تعجبت منها وما زلت لم أفهم لها دافعا أو سببا وجيها !! أعطاني قصاصة ورق، وقع عليها وكتب الشؤون الإدارية، وأشار بيده ما فهمته ان اصعد إلى فوق .... سرحت لبرهة، أين إلى فوق ؟ إلى القمر، أم إلى السحاب، إلى عمود الضغط الجوي ينطح رؤوسنا فكلها فوق، أم إلى الوزير أو الوكيل أو المدير العام فكلهم فوق رؤوسنا، ربما إلى فوق مع الجنادب والفراش أو البعوض فكلها تقفز وتطير فوق ....لا، لا إلى فوق إلى قمة الجبل إلى عش النسور إلى سطح الوزارة، لعله إلى السماء مع المنتظرين واليائسين والصرعى.

سللت نفسي من أحلامي وخرجت، وعاد يشرب ويتلذذ ولم أجرؤ أن أسأله كيف الطريق إلى الشؤون الإدارية وأين إلى فوق ؟

لقد اتبع في نهجه طريقا ملتويا معوجا ملولبا ولم يسر بخط مستقيم ذاك الذي اعتادته جماعة الفئران قبل نشر المصائد وعسكرة القطة، لقد بحث وتقصى ودرس تفاصيل المنزل جيدا وحفظ أوقات صحو القطة ونومها، ورصد أماكن المصائد المخبوءة والمكشوفة، وعلم كيف يدخل المطبخ ويكسر الأقفال ويزيح الأستار، وتعلم متى يجد الطعام ومتى يجد الكولا بالحجم العائلي وأتقن طريقه والصعود إلى الطابق الثاني .

بدا لي من بعيد رجل أمن يجلس على مكتب قرب الدرج، تقدمت إليه مخترقا حشود المراجعين المتراصين المتدافعين، مد يده أفقيا وبزاوية قائمة ! قلت له وقد أدركت أن فوق قد تعني الطابق الثاني: أريد الشؤون الإدارية، فأشار بيده ما يعني أعطني، وقال: تصريح . فأدركت أن قصاصة الورق التي تسلمتها من موظف البيبسي كولا بالحجم العائلي تسمى تصريحا فأبرزتها ....وما زالت يده ممدودة على استقامتها حتى ظننت أنه من المتوجب أن أحبو تحتها لأصعد إلى الطابق الثاني !؟

كانت حبيبتي تقول لي دوما احبك في الصباح، أحبك في الظهيرة، احبك في المساء، أحبك كألوان الطيف ....لم أستطع أن أفهم هذه العبارة بعمقها الوظيفي وبعدها الإداري إلا عندما دخلت إلى مبنى الوزارة ....رأيت الطيف ألوانا غير محببة في حشود المراجعين التائهين منهم واليائسين والقلقين وأولئك المكتئبين .... وفي ملابس وإشارات وتصرفات الموظفين والموظفات اللاهين عن عملهم واللاهيات، اللاعبين بأعصاب ووقت وحاجات المواطنين واللاعبات ...قهرا وهزيمة.

صعدت إلى الطابق الثاني في الوزارة، بخجل ووجل تقدمت من أول شخص لمحته يتبختر في الطابق، وسألته ماذا أفعل ؟ فأشار بيده إلى اليمين ...وقفت

لأكثر من نصف ساعة انتظر انتهاء مكالمة تخللها ضحكات وسعال شديد وهمسات، دلفت إلى الغرفة وسألته بعد أن وضع السماعة بالطبع فأشار إلى زميله وعاد ليلتقط السماعة، وبإشارة من يد الآخر حُوّلت بابتسامة إلى الغرفة المجاورة وهكذا حتى لم أدع غرفة أو مكتب في الطابق الثاني يعتب عليّ .

لقد انطفأت، أُنهكت ...يا إلهي، لقد احتبست أنفاسي، وضاق صدري حتى لم يعد يتسع أو يتحمل نسمات الهواء لتمر براحتها عبر قصباتي ....وخزات شديدة متلاحقة في الصدر وخفقات متسارعة في قلبي، وضعت يدي عليه، ما لهذا القلب قد اشتعل نارا، وتلاطمت أمواجه لتتكسر على شمس الوجع، لا يستقر...يخطط للانفلات من قفصه، قفصي الصدري ولا يركد أو يسكن، زئير نبضاته أصَمَّت آذانهم حتى غدا رأسي كطبلة رقيقة تصفع بقوة من يد طبال ماهر يقف وراء راقصة (لهلوبة) .... كالمدحلة أو كحشرة تئز لا تكف، أجبنت أيها القلب تتوسل الفرار أم تريد التوقف ؟!

بعد فترة من الانتظار المقرر أشار الساعي الذي يشبه الفأر والراقد على باب غرفة أنيقة مغلقة أن أدخل، فُتح الباب فولجت غرفة فسيحة كأنها ملعب، زاهية، ذات أثاث فاخر...بعد عدة خطوات طويلة كثيرة ومتلاحقة وصلت إلى رجل أشيب قاعد على كرسيه الفخم ذي الظهر العالي، متأنق، يقابله شخص آخر...خلا سطح المكتب أمامهما من كل ما يشير للإدارة أو المعاملات أو الشؤون الإدارية أو حتى أي ورقة أو قلم . إلا إذا كانت طاولة الزهر من مستلزمات العمل؟! وبين أصوات رميات حجر النرد وصرخات (الشيش بيش) و(الدو جهار) تسمرت في مكاني حتى هزوني طويلا لاسترجع كينونتي من حالة التصنم التي أصابتني . لقد كان المدير العام يلعب طاولة الزهر في المكتب ؟! في وضح النهار وأثناء العمل الرسمي، كالعادة ؟! ولم لا يفعل ذلك، فلعب طاولة الزهر كما يقول عتبة بن جرير رحمه الله وتغمده فسيح جناته له سبع فوائد: يقتل - لاحظوا يقتل- الوقت، ويزيل المقت، ويمنع النميمة، ويقوي الشكيمة-ماشاءالله- ويقرب البعيد ويؤنس البعير ويزيد ولع السمير . ولو كان الأديب الجاهلي ابن جرير حيا للآن لأضاف لأثره قائلا: ولعبها يليق بالوزير والوكيل والمدير .

انطلق الفأر مسرعا مما أعمى عنه عيون العابثين والعابثات واللاهين واللاهيات ...لم يلتفت لعجز أو خوف وقهر وإحباط جماعته، وانقض على مبتغاه كالرمح ....أكل حتى تقيأ ونهش حتى كاد ينفجر وشرب حتى تبوّل، وتهيأ نفسيا وعصبيا وفيزيائيا للمضاجعة التي نسيها لطول جوعه وشقائه وانحصار فكره وجماعته في أمعائهم ومعداتهم وبطونهم ....ولم يدركوا لسوء حظهم لذة اللعب، لعب طاولة الزهر!!

نظر إليّ طويلا وكأنه غائب عن الوعي، لا سيما وأن المكتب الفخم الفسيح كان قبل ظهوري خاليا من أحد إلا هو وسميره في الطرف الآخر من المكتب، انتبه لوجودي، وتَصنّمي ثم عودة الروح اليّ فتدارك الموقف بابتسامة خالية الملامح، وطلب مني النفخ على حجرَيّ الزهر في يمينه فنفخت ورماهما فكان الحظ حليفه، تطاير انبساطه في أرجاء الملعب أقصد الغرفة الواسعة ...نعم، هكذا قال، فشرحت له حاجتي ونظره لا يفارق طاولة الزهر، ثم مددت عليه المعاملة فأشار بيسراه أن اذهب ! وقال سميره: الصادر ! ...وعدت ثانية في دورة كاملة لجميع المكاتب، نائب المدير العام، المدراء، موظفي الشؤون الإدارية، الطباعة، الصادر، الديوان، السجلات والأرشيف ثم لساعي المدير العام الذي يشبه الفأر... حتى لم أعد أشعر بقدمَيّ من شدة الألم الذي لازمني حتى انقضت سحابة اليوم .

تنقل الفأر مزهوا بانتصاره بين مختلف ألوان الطيف (يفهمه) في أكل الطعام وشرب الكولا، وما ترك شيئا حيا أو جمادا أو نباتا في الطابقين إلا وغبره بأقدامه وذيله ....لقد داس على جوعه وقهره وحقق شبع معدته تاركا آثارا لا تمحى، وانقضت سحابة اليوم .

هل صحيح أنها تحبني كألوان الطيف متدرجاً متواصلاً متصاعداً أم متعارضا متباينا ؟؟ عشقا متذبذبا متنازلا متردداً يخفت حينا ويشتد أواره حينا؟! رغبة ولا رغبة، اندفاع وتراجع ! تَبَسُّم وتقطيب، إسهال في الحديث وانقباض فجائي !... كيف تحبني كألوان الطيف، أو أستطيع أن أفكر بحبها

الملون ؟ وقدماي لم تعودا قادرتين على احتمالي . لقد ملتاني وعافتا انهزام ذاتي والتصاقي بهما ! كيف أستطيع أن أفهم الألوان حبا وقلبي منكمش وانقباضي يتعاظم ولا يهدأ ومعدتي تتمزق غيظا ودماغي اغتال جميع أقلامه، فلم يكتب في سفره سطرا واحدا ولشهر أو يزيد استغرقه، وأنا مراجع دائم أو زبون يومي للوزارة ...حتى ما أن يراني أي موظف إلا وبادرني القول وهو مبتسم أن جواب معاملتك لم يصل بعد ! وأعانك الله .

فكرت مرارا أن أتخلص من شعوري بالقهر والامتهان الناجم عن بطء وفساد وتأخير وتعقيد وطول وعدم جدية أو أهمية الإجراءات الادراية البسيطة والشكلية، واغتصابها لحاجة أو مصلحة ووقت الانسان الذي لا معنى له عندهم!! فكرت أن أتخلص من هذا الشعور بعمل ثوري ...أن أقوم بتفجير مبنى الوزارة ! على غرار ما فعل حزب الله بقوات (المارينز) الأمريكية في لبنان... أستقدم شاحنة مليئة بالمتفجرات واستأجر انتحاريا يقودها باتجاه البوابة العالية التي تفتح الكترونيا وتفضي إلى المبنى . ولكن عقبات رئيسية ثلاث واجهتني: الأولى أنني لا أعرف من أين أحضر شاحنة، والثانية أنني لا أدري كيف أحصل على المتفجرات، والثالثة جهلي بشخص أو حتى فأر يرغب بتمزيق جسده حفاظا على كرامة الانسان .

لقد تخلص الفأر المزهو بنفسه من شعوره العميق الوعِر بالمهانة والقلق والإذلال ....حمل ما استطاع من طعام وشراب وجره رافع الرأس في عربة وراء ظهره، وعاد من ذات الطريق المعوج الملتف اللولبي محققا انتفاضة الجوع والقهر، بعد شهر أو يزيد سقط في دربه صريعا .

فكرت أن اختطف الفتاة الجميلة الطابعة ذات الشفتين الطريتين اللذيذتين اللتين لا تكفان عن تقبيل سماعة هاتف الوزارة، و أطالب المدير العام مغلق الباب اللاهي بلعب طاولة النرد أن يفتديها بإنجاز معاملتي ...إلا أنني نبذت الفكرة حبا في الجمال وسعيا وراء خيالاتي المرتبطة بشفتيها وتقديرا لعتبة بن جرير واحتراما لحقوق المرأة والطفل .

فكرت أن انتحر بطريقة البالون! نعم بطريقة البالون! أهجم على أرشيف وسجلات الوزارة وابتلعها جميعا حتى أصبح منفوخا كالبالون واقفز من سطح الوزارة فأتفجر بما ابتلعت إلا أنني ركنت الفكرة جانبا لأنها ستتسبب بطالة لجيش الموظفين، ولأنني لا أعرف طريق سطح الوزارة فوق ...ولأنني اكتشفت فيّ الجبن، فأنا لا أحتمل فكرة أن أتفجر أصلا! ونبذت بضعة أفكار سوداء أخرى ولم أجد حلا ناجعا وللهَمّ قاشعا وللذل دافعا إلا أن أعلن اتكالي على الله وأصدر البيان الأول، وأطلق انتفاضة عارمة ضد البيروقراطية وضد ألوان الطيف وبخار الماء والضغط الجوي وضد الإجراءات الشكلية والبسيطة الروتينية، وضد ابتسامات العجز والبلاهة، وضد البطالة المقنعة، وضد البيبسي كولا بالحجم العائلي وضد لغة الإشارة وضد الوقت يُنحَر يوميا في مسلخ الزمن المهدور، وضد الجوع والأمعاء وضد الانتظار والاكتئاب وضد الكراسي عالية الظهر وضد طاولة الزهر وضد المكاتب والبوابات الحديدية وضد الطابق الثاني وضد تلوث البيئة وكان البيان الأول والأخير .

■ ■ ■

• مقتل الجندي داني يعقوب!

يصحو مبكراً ليطل من نافذة المنزل على الحقل المجاور، يمتع ناظريه برؤية أشجار الزيتون وأشجار المشمش والخوخ، ويطرب لسماع تغريد الطيور ثم يحمل حقيبته المدرسية ويعرج على صديقه في المنزل المجاور ويتقدمان سيراً لمسافة طويلة حتى الوصول للمدرسة.

كان الأول يقول: أحب أن أكون طياراً يمسح فضاء الوطن.

وكان الثاني يقول: أرغب أن أكون بحاراً يجول المحيطات والبحار.

وكانا معاً يتجادلان في أحلامهما، ويخططان لمستقبل مقبل كما هو شأن جميع الصبيان والشباب في العالم ....إلا أن للرغبة والحلم في فلسطين نكهة

مغايرة لأنها لا تشترط الإرادة والجد والتفوق فقط، وانما تشترط تجاوز عقبات ليس أقلها الإفلات من أسر احتلال أحاط الأفكار والعقول والأحلام كما أحاط الناس والبيوت والشوارع بأسلاك شائكة، أو فصلها بخنادق وسواتر وكانت هذه أيضا من العناوين العريضة التي يتحدث فيها الصديقان ويشركان بها ثلة من زملائهم في المدرسة.

عندما ألقى الحجر الأول على مجرم الحرب المعروف أرئيل شارون في ساحة الأقصى كان محمود وصديقه جابر قد وصلا إلى قناعة بأن الحل لحالة الأسر والفصل التي يعيشونها عقلياً وماديا مردها استقرار الاحتلال ... فكان لانطلاقة الحجر من أيديهما دلالة على السخط من ما يرمز إليه الاحتلال من قمع وإذلال وتعذيب وقتل وهدم وسجن وتقطيع وإرهاب، لقد أعلن محمود انطلاقة انتفاضة الأقصى، وحقق انتصارا لواحد من أحلامه الكثيرة ألا وهو حلم الإفلات من أسر الواقع المهين، والنهوض بكبرياء الثوار، وعزيمة المناضلين لزعزعة استقرار المحتلين الى أن يرحلوا .

شهور عدة وكل من الصديقين محمود وجابر وزملائهما يمارسون طقوسهم المقدسة على حواجز الاحتلال، يجمعون الحجارة ويملؤون حقائبهم المدرسية بها ويتخذون ساتراً ويهاجمون الدوريات الرابضة على مداخل مدينتهم ... بتواصل ارتبط بعنفوان الشباب وعزيمة من لا يقبل الهزيمة.

نظر محمود في عيني داني، الجندي القابض على جمر التصدي لشبان الانتفاضة فتوقف كل منهما للحظات كانت قصيرة وان بدت لكليهما طويلة، فقال محمود في نفسه: بماذا يفكر هذا الجندي يا ترى يا ليتني مكانه ؟! لقد نزع داني لأول مرة نظارته عن عينيه ونظر نحو البعيد لتستقر عيناه في عيني الصبي الفلسطيني في السادسة عشرة ... تأوه داني طويلاً وشعر بالانقباض ربما لأول مرة منذ وقوفه على الحاجز! كان الرجل ابناً لأبوين قادمين من كييف عاصمة أوكرانيا الجميلة، التي يخترقها نهر جميل يجعل من العيش فيها أمنية ومطلبا، وكان والداه كثيراً ما يحدثانه عن تلك الأيام السعيدة هناك رغم فقر

الحال المرتبط بطبيعة النظام والأزمة الاقتصادية الخانقة التي كانا يعيشانها ... والتي دفعتهما لاحقا لترك مسقط رأسيهما والقدوم الى (إسرائيل).

في زيارته الأولى الى كيبيف اكتشف الفرق بين أن يكون جنديا في حرس الحدود على مداخل المدن الفلسطينية وبين أن يكون في بلده الأصلي (كييف) مزارعا لطيفا منتجا ... تنازعته الكثير من الهواجس والأحاسيس، وحلم بالاستقرار النفسي وكان يأمل كثيراً في ترك درعه الحديدي أمام الحاجز والركض باتجاه المتظاهرين العزل وحمل حجر والقائه باتجاه مركبات الجيش أو حرس الحدود.

عندما التقت نظرات محمود و داني انطلق البريق من عيون الصبي الفلسطيني الحالم بأن تطأ قدماه أرضا خالية من الحديد والنار والخوذات والبارود باتجاه داني الباحث عن الاستقرار والعيش بسلام مع جيرانه الأقربين... ابتسم داني من بعيد وتمنى أن يرى محمود ابتسامته، وعاد ليجلس في المركبة صامتاً ... مرت الشهور الطويلة وداني يتفتت بين مبادئ بدأت تنمو وتطغى وترفض ما هو فيه، وبين واقع كئيب وحزين يعيشه في وحدته العسكرية التي يتفاخر الجنود فيها بكم قتلوا أو أصابوا ... وبأم عينيه شاهد التنكيل والضرب وحاول مراراً أن ينتزع نفسه من خوفه وجبنه ولكن لا جدوى ... ظلت المشاهد تتكرر، والألم يطغى والحزن يكاد يقتله إلى أن التقت تلك النظرات.

اتهمه زملاؤه بالجبن والتفاهة والتقصير لأنه لم يرفع بندقيته ولو مرة واحدة وأطلقها باتجاه المتظاهرين ... كان يتألم كثيراً جالساً في المركبة أو منتظراً أن يطل عليه ذاك الصبي الشجاع الذي رصد حركته ومكان ربوضه الدائم وراء ساتر يلقى منه الحجارة إلى أن رمى الحجر باتجاه الدورية.

نظر محمود الى نفسه والبعض من حوله يصيحون عليه بالعبرية أن ابتعد واختبئ ... فلم يفهم ذلك ؟! كيف لأصدقائه الحديث بالعبرية وهو الوحيد بينهم الذي يتقنها لعمله في العطل الصيفية هناك في فلسطين التاريخية ... إلا أنه خرج عن ذهوله عندما شده أحدهم وراء ساتر إسمنتي طويل، فنظر فزعا: إن

من حـوله يلبسـون مـلابس الجنـود الإسـرائيليـين ... ياالله، كـيـف ذلك!! وازداد استغرابه حينما نظر الى نفسه يلبس نفس الملابس؟!

بالاتجـاه الآخر نظر داني إلى أصدقائه بالجينز والكوفية فشعر بالفرح ربما لأول مرة منذ خدمته في الضفة الغربية ...؟! ظنها مزحة أو نكتة للوهلة الأولى ولكنه تيقن من عكس ذلك عندما كان ينظر لنفسه بنفس اللباس ... كان الجميع يصرخ به أن ابتعد وهو لا يفهم من اللغة العربية إلا القليل ... أصـابتـه رصـاصـة في الكتف استدعت نقله إلى المستشفى.

لقد التقط النور المنبعث من عيون محمود وداني رغباتهما الدفينة فكان كل منهما في موقع الآخر في جسد الآخر ... عـاش محمود يومـاً أسود في الوحدة العسكرية لداني الذي أصبح، حيث الاحتفالات تقام كل يوم على شرف عدد الضحايا من الفلسطينيين، وعاش داني يوماً أبيض سعيدا ذكره بالأيام الجميلة التي قضـاهـا في زيارة (كييف) ... وأحس مدى القرب والحميمة والود والحب الذي أحـاط به جـريحـا من قـبل صـديقـه المقـرب جـابر ومـن قـبل أهله وجـمـيـع أصدقائه ... بل ومن قبل جمع غفير من الناس لا يعرفهم ولا يعرفونه أعاده لذكرى حميمية اللقاء الشرقي مع أقارب أهله القاطنين قرب النهر، مما افتقده لاحقا في مجتمع المدرسة والوحدة العسكرية.

لأول مـرة ربما يصحو محمود بحلته الجديدة ليرى الشمس مطفأة وشـجـر الزيتون محترقا، وجمع من الغربان تسير حاملة نعش شجرة الخوخ والمشمش، ورأى فـزعـا انتحـار الطيور وتحـول المرج الأخضـر إلى هشيم ... لقد كان في الوحدة العسكرية يعيش سجنه وسجن داني، ولأسبوع تلا وهو في هذه الحالة عند الحاجز ينتظر ظهور داني رامي الحجارة من بين الجموع، وينخلع قلبه كلما سقط شهيد أو أصيب جريح وهو لا يستطيع فكاكا من روحه وجسد غيره، وكان داني في المقابل يتمنى أن تطول به الأيام في المستشفى وألا يعود للشقـاء بين مهووسين بالقتل من زملائه الى أن كان خروجه من المستشفى مستدعيا لعودته وجابر إلى المواجهات.

كان محمود مازال يحدق في البعيد باتجاه الزاوية التي اعتاد داني -محمود سابقاً-أن يرمي منها الحجارة ... إلى أن أطل وجابر فانقبض داني الذي عرف بانتهاء أيامه الحميمة بجسد محمود وكان للنظرات المتبادلة بينهما من بعيد أن تبادلا جسديهما ولكن احساساتهما تكاثفت وتعاظمت ... سقط محمود مغشياً عليه قرب جابر الذي سارع إلى إسعافه ولم يعهده ضعيفاً هكذا يسقط من ضربة شمس لم يكن يعرف أنها في صديقه ولأيام مضت كانت منطفئة ... وجلس داني في العربة العسكرية منكسراً محبطا . وفي اليوم التالي أعلن الجيش الإسرائيلي أن حصيلة المواجهات كانت ثلاثة قتلى من (الإرهابيين) الفلسطينيين وعشرين جريحا، ومقتل الجندي داني يعقوب.

■ ■ ■

• هاجر تحلل!

كانا من بيئة متوسطة، فلم يفرق بينهما اختلاف انطوى على فقر وغنى أو عشيرة وقبيلة أو قرية ومدينة أو حضر وبداوة ...وإنما فرق بينهما ما هو أكبر من ذلك ؟!

جلست على طرف الأريكة، هكذا تعودت أن تجلس طوال عشر من السنين، تجلس وتبدأ بالكلام ... لا تتعب من الكلام، فهي له من المتهنين حتى تجلت الصنعة فيها! إن سئلت كان جوابها بلا حدود، وإن طلب منها أن (تنقد) فلانا او فلانة أفلتت خيوط لسانها وإن أمسك الجميع عن الحديث تألقت وانتعشت إنها أم لسانين ! هكذا كانوا يسمونها في الحي .

جلس مسندا ظهره الى الأريكة المجاورة، ينظر إلى فمها ولسانها وشفتيها ويتفكر بالحركات العجيبة التي تؤدي لخروج الحروف والكلمات والجمل من فمها الغريب ...تتكلم فلا يكاد يرفع نظره في وجهها فهي فم لا غير ؟! ليس للعيون او الجبين أو الخدود أي معنى لأن حياتها مركبة ما بين شفتيها وما لا تصونه.

جاءت ام اللسانين وذهبت أم اللسانين وقعدت أم اللسانين حتى أصبحت سيرتها على (المانشيتات) الرئيسة في جلسات الصباح الهاديء لنساء الحي ... قالت ام عمران: عجبت اليوم من أم اللسانين كيف تكلمت لأكثر من نصف ساعة ولم تبلع ريقها ؟ قالت المجاورة: معقول ...لم تبلع ريقها؟ ردت أم عمران: نعم، وأكاد اجزم أنها لم تلتقط انفاسها... فتضاحكت النسوة من قول ام عمران، وواصلن احتساء القهوة...

ربما اعتقدت أم اللسانين أنها بهذا الدور الذي ارتضته لنفسها تقوم مقام المذياع أو (التلفزة) ولكن سوء حظها أوقعها في حال أصبح في كل بيت بالحي تقريبا أحد الوسيلتين القاتلتين للوقت ...لم تعد الحاجة لأم اللسانين ...فقادها اعتقادها لاحقا الى أنها تقوم بمهمة إعلامية شاقة لا غنى عنها حتى في ظل المسموع والمرئي وهي مهمة التعليق على الخبر بل وفلسفته احيانا !... قالت هاجر وهذا اسمها: هل سمعتم تهديد كلينتون لأبي عمار انه (إذا لم تستجب للأفكار الأمريكية في حل القضية الفلسطينية فإنني سأفلت عليك غول الحرب، سأفلت باراك وجيشه عليك حتى لا تقوم للفلسطينيين قائمة بعدها؟!) تلفت الحضور في وجوه بعضهم البعض كالعادة ففي الخبر شيء مما تناقلته الصحف ولكن ليس هكذا ...أرخت النسوة لها الحبل، فواصلت: وقال له إن تمسكت بالحرم القدسي فسأرصد لك المليارات ليبنى مثيل له في رام الله او أبو قش ... كتمت ام عمران ضحكتها وقالت: ولكن لماذا قرية أبو قش ؟! فقالت هاجر: لأنها على الطريق بين رام الله وبيرزيت ! لم يفهم أحد شيئا بالطبع ..واسترسلت تحلل والنسوة في لقاء الصباح هذا بدأن الانسحاب وإعادة الانتشار الواحدة تلو الأخرى ... وبعض الأزواج من المتقاعدين الجالسين أخلوا مواقعهم الى المقاهي ...لم يبقَ في (القعدة) إلا هاجر وربة المنزل وأم عمران...

في خضم انتفاضة الأقصى المجيدة التي اندلعت إثر اقتحام مجرم الحرب المعروف أرئيل شارون محاطا بأكثر من ألفي رجل شرطة إسرائيلي باحات الحرم القدسي الشريف...اختلفت عادات الناس وتواضعت حياتهم سواء بالأكل أو

بالشرب أو الزيارات أو الحركة، لقد عم الناس شعوران الأول عزيمة وعنفوان وتصميم ادام الانتفاضة والثاني قلق وتوتر وإحباط بسبب الألم و التقتيل والإرهاب والحصار والمعاناة القاسية... ولم تكن حالتا العنفوان والإحباط هاتين وتناوبهما غريبة على الشعب الفلسطيني، فقد عاش مثل هذه الحالة مرارا وتكرارا منذ النكبة حتى أصبح التشكك والريبة والتشدد والتعنت من مشمولات شخصيته وإن بنسب متفاوته ارتبطت بالبيئة والثقافة ...إلا فيما يتعلق بهاجر المكناة أم اللسانين ...لم تكن الانتفاضة لتعني لها تغييرا سلوكيا بل تطويرا إذاعيا لما تنقله من أخبار ومعلومات .

تتنقل من بيت الى آخر ومن شقة الى أخرى ...تغيب عن بيتها، وتنسى الطبيخ والغسيل وعنت الأطفال، ولكنها لا تنطفىء ولا تركد... عندما قصفت مدينة رام الله لأول مرة بصواريخ الاحتلال الإسرائيلي كانت النسوة يحتمين بهاجر ... دعوهم يقصفون فنحن لا نخاف إرهابهم، وإن مات منا عشرة أو عشرين او مائة... دعوهم يقتلون فإن للظالم نهاية. تواصلت بتحريضها وخطابها حتى كادت تتفوق على ركاب الفضائيات العربية من القيادات الفلسطينية البراقة يسارا ويمينا .

يجلس زوجها منبهرا يتأمل في لسانها... راجيا من الله أن تهز له رأسها عندما يطلب منها شيئا، راجيا من الله أن تشعره بكيانه الرجولي فتستأذنه بالخروج او تسلم عليه حين الدخول للبيت ولكن لا امل له ؟!... إن هاجر وجدت في الانتفاضة فرصة أكبر وحظا أوفر في ممارسة مهنتها، متعتها الاصيلة المتمثلة في نقل وتحليل وفلسفة الاخبار وبالطبع تعظيمها وتضخيمها ...

على حاجز البيرة الشمالي قرب فندق (السيتي إن) وقفت تحدث عددا من الشبان يلقون بحجارتهم في وجه الغرابيب ... نظر إليها مراسل إحدى الفضائيات الذي عاينها في نفس المكان أكثر من مرة ... تقدم منها وسألها وما كان له ان يسأل ! لقد انطلق لسانها يهدر كما لم يهدر أي من ركاب الفضائيات من القيادات التي أدمنت الأثير ... في رام الله أصبحت هاجر -بعد أن اختفت

كنيتها أم اللسانين بمجرد ظهورها على الشاشة - علما من أعلام المدينة وأعلام فلسطين ... لا يكاد يمر يوم لا يخاطب فيه لسانها هذه الفضائية او تلك... تعبر بأمانة عن نبض الشارع وروح اطفال الحجارة وإقدام شبان الوطن، وتعبر عن ألم ام الشهيد، وفلسفة المواجهات الحجرية، وعن سوء سلوك موفاز وترسم شكل الأفق السياسي في سفر المستقبل ... أو هكذا ظنت .

لم يعد زوجها يتجرأ أن يطلب منها كوب ماء، ولم يعد يجرؤ أن يظهر أنه رب الأسرة ومرجعية شراكتهما والأطفال ... لأن الأطفال أصبحوا أطفال هاجر، وهو زوجها وهي وركاب الفضائيات من القيادات الفلسطينية أعلام المرحلة ونجومها، فلا بد لمثله ان ينحني للعاصفة لا سيما وهو منحٍ منذ زمن طويل، فما الجديد في ذلك ؟!

كانت هاجر وزوجها من بيئة متوسطة لم يفرق بينهما عين او أذن، فقر أو غنى، حضر أو بداوة ... وفرق بينهما ما هو أكبر من ذلك.

■ ■ ■

• هو بين إيلاف ومروة!

كان لا يهدأ، دائم الثورة والتمرد، لا يكاد يطيق قيدا ولو كان واهيا، الحياة عنده ...فضاء مفتوح بلا حدود، متمرد على ما يراه مخالف أو مفارق أو منافق أو مجحف أو ببساطة غير متفق مع تصوراته، أفكاره، آماله وحتى أوهامه .

أحيانا تراه هادئا كما النسمة الخجلى تمر على وجه صبوح كفلقة القمر فتزيده عذوبة تجعل من النظر فيه انتعاشاً وطراوة، وأحياناً تراه كما الثور هائجا مائجا، كموج البحر يعلو حتى لا ترى من علوه شيئاً وينخفض حتى لتظن أن لا قعر يبين، يرتفع حتى يرتسم أمام ناظريك سداً حصيناً، وينزل حتى تخترقه الهوام...

قلب مليء بالأورام، مليء بما يغلق عليه، قليل الانفتاح، كثير التراكم، مغلف بالعقد صعب الانحلال، عظيم التفاقم، قليل الانسياح، موصول العنف، منقطع التسامح ...

هكذا وصفت إيلاف زوجها، وهي تجلس في بيت أخيها، تحادث زوجة أخيها وتسامرها في ليل شتاء موجوع، لأيام باردة طويلة لم تنقطع فيها الدموع ولم تنشف فيها المآقي كانت إيلاف ترسم قهراً من زوجها المنخرط في صفوف القيادات الميدانية لانتفاضة الأقصى، ولم تجد من تبثه أحزانها وعتق آلامها إلا تلك الواجدة بنت قرية (كوبر) وزوجة أخيها المنتظرة تنتظر رائحة شوق وتترقب لحنا شجيا ... تعتصر ألم فراق طال حتى لم يبن له نهاية، وترتوي من حكايا إيلاف وشكواها ما يخفف فيها حريق الأنثى، وحفيف الصدر.

تزوجت مروة من ابن عمها ولم تكمل معه أسبوعها الأول وظلت تنتظره حتى اليوم عشر سنين، لقد ذهب زوجها أخو إيلاف إلى حيث يحج الناس هذه الأيام ولا يعودون ولم يكن لدموعها الهاطلة في وداعه إلا الزجر من أم زوجها التي قست عليها وعلى نفسها وعلى ولدها حتى ماتت ولم يعد ليواريها الثرى ...وما زال زوج مروة يعدو كالمجنون وراءها في بلاد يفصلنا عنها بحر كبير ومحيط هادر...الدولار في قرية (كوبر) التي تنتشر بيوتها بخفة في حضن محيط رام الله أبعد قليلا من بيرزيت وبرهام من قرى فلسطين تكثر القصص والخراريف كما هو الحال في قرانا ربما كل قرانا وبلادنا، وتزداد كلما مر النسيم في قيظ صيف، أو هطلت الثلوج في عنق شتاء يذكر بتلك البلاد البعيدة، ولا يخفف من حريق العذارى المحزونات على أزواج غائبين الا اجترار الذكريات وسماعة الهاتف والانشغال بتطريز قطعة فاتين فعشرة فمئة أو إرخاء الأذن للقيل والقال وكثرة الحديث والسؤال دون كلل او ابتسار!

قالت إيلاف: لم أعد أراه إلا قليلا !

وقالت مروة وهي مقفلة الفم: ألِيّ تتحدثين؟ أم تراك ضللت؟ هل إياي تقصدين أم تراك ضللت؟ في عينيّ لا بد أن تري عذاب الحرمان والبعد أم انك نسيت وضللت؟! أتشكين زوجك أم تشكين اليّ أخيك زوجي؟

قالت إيلاف وهي مقفلة الفم: لقد فهمتك! وأخطأت السؤال !! نعم ضللت فسامحيني! انك الموجوعة في ليل الفرحين، والساهرة في ليل النائمين المطمئنين والمقفرة في أرض الأزهار.... أعلم، سامحيني ولا تنظري إليّ هكذا ! .

قالت مروة: هل تشربين الشاي؟

محمد ينام النهار ولا يصحو إلا مع غياب الشمس يصعد مع زملائه باتجاه مستعمرة جبل الطويل قرب مدينة البيرة، ويطلقون الرصاصات القليلة بحوزتهم نحو إرهابيين اغتصبوا أرضنا، وظنوا أن يعيشوا بدعة وراحة، عشرات من الطلقات يرد عليها الجيش المرابط في المستعمرة والإرهابيون من المستوطنين بقذائف وطلقات من رشاشات ضخمة تحيل ليل الأهالي في البيرة الى نهار وصمت بيوتهم الى صخب يختلط بذعر الأطفال...، وفوضى المراهقين وعجاج العجائز.

قالت إيلاف لزوجها: وما فائدة أن تطلقوا الرصاص على المستعمرة وانتم لا تصيبون فيها إلا خزانات الماء؟

قال محمد: وهل ندعهم ينامون فوق أرضنا مطمئنين هادئين؟

قالت إيلاف: ولكنكم تجلبون المصائب على أبناء شعبنا في البيرة دون داع فصرخ محمد كعادته يرفض نقاشا فيما استقر في ذهنه حقا، ووقر في قلبه إيمانا، ومارسه عملا وطنيا، ثار وتمرد وصفق الباب وراءه كالعادة.

فلم يكن لإيلاف من بد أن تقصد بيت مروة وما أن اقتربت من باب بيتها حتى ... سمعتها تغني الدلعونا وتقول:

يمّه يا يمّه ثوبي حرقته   على حبيبي لما فارقته
ولفي يا ولفي قلبي سرقته   لما رحلتو وما ودعتونا
والله يا عالم ثوبي قددته   على وليفي يوم فارقته
معكم أماني يللي شرقته   خذه سلامي لها الحانونه

الله أكـــبــــر يوم هـم راحـــوا أكلت الـصـــبـــر أكلت ألـواحـــه
سكروا قلبي واخـذوا مـفـتـاحـه الله يهــــديهم هـالفــــرقـــونه
ناري يا ناري ناري عليـــــهمْ طالت الغـيـبـة واشـتـقنا ليـهم
قلبي يا قلبي احـــزن عليـــهم هـاذولا أحـــبـــابك كـــانوا يسلونا
يمه يا يمه لفـــيني بخــــرقـــه واجـعلي قـبـري وجـهـه لشـرقـه
يمه يا يمه مـا اصـعب الفـرقـه ارحم يا ربي أحـبـابي الجـافـونا
سالت الدموع على خدود المرأتين واحـتـضنتـا بـعـضـهـمـا البـعض

لقد كان يكره في الاحتلال الكثير وصفة النهب، فهم لا يقتصرون على نهب الأراضي وانتزاع الزيتون من مستقر الوطن، ولا يتوقفون عند حد القتل والتدمير وإنما يصرون في صيغة مرضية أن ينهبوا النوم من على مخدة الحبيبين، ويزرعوا كومة من الرصاص في العيون، ينهبون الود ويعجنون القلوب بماء الحقد فيلفظون البؤس حية تسعى .

لذلك محمد ينام النهار ما استطاع، ويصعد مع زملائه ليلا حيث يرقد النهابون، لا يهدأ، دائم الثورة والعنف، لم يطق قيدا، نهب منه الاحتلال نسمة الربيع وفلقة القمر ونعمة التسامح، فكان في تمرده قليل الانفتاح وسد حصين ومفارق مقيم .

■ ■ ■

• يجب أن تقاوم

خمول شديد ورغبة متواصلة في النوم، شعور بالبرد الشديد وتوق دائم للتلحف والتغطي والتدثر، يبدأ الأمر بقشعريرة تصيب كامل البدن فترتفع درجة حرارة الجسم الذي تهاجمه الحمى فتجعل من الجسم رهينها ... لا يستطيع التفكير إلا في الاستسلام للخمول، يمتنع عنه العالم الخارجي وينغلق في عالمه الداخلي شعور المتعة بالأكل أو الشرب والتجول والتفكير، العمل، الصحبة،

التفرج، الإنصات، اللمس، الشم، التخيل، التأمل، الاسترخاء والجلوس ببلاهة، التبول أو الإخراج، التمطي أو التمدد دون هدف، التنزه أو التسكع، المشي أو التريض، العشق .... إلخ.

إذا فقد كل ذلك فما هو عالمه الداخلي يا ترى الذي ينغلق عليه ؟! إنه عالم الهدوء والاستسلام والانتظار .... عندما يصاب المرء بمرض أنف العنزة (الأنفلونزا) يقولون له يجب ان تقاوم ! بالغذاء الصحي والدواء يجب أن تقاوم... ولكن كيف تقاوم وأنت للأكل والشرب والدواء تقاوم ؟! في عالم الاستسلام يصبح كل شيء غير هام ما عدا السلامة الشخصية ويتحول الدماغ مطواعا منفذا لانعكاسات المرض دون إرادة منه ... فلا مقاومة ولا يحزنون .

تحت لسانه طعم مائع، سكري غريب، يدوم يوما فيومين، طعم يغيظ، يشعر بالضيق ... ثم يتغير إلى مرار شديد، ما أن يحاول القضاء على الطعم الأول حتى يداهمه الثاني ... فينتقل بين الأطعمة محاولا استعادة طعم فمه المفقود ... وطعم نظره السابق وطعم إنصاته للجمال ورقة لمساته ..دون طائل !

تتكاثف الغيوم وتتلبد أمام ناظريه، وخاصة متى ما ارتبط مرضه المر بمرارة الظرف النفسي الذي يمر به إثر فقدانه لمتعة التسكع عصرا في شوارع المدينة القديمة الضيقة .

يمتشق سيفه ويخرج من باب الشقة في الدور الثالث، مسافة طويلة، صارخا في وجه العتمة، يشق بسيفه قطع الظلام المتجمعة، يعلق الدم المهراق في وجه الليل الذي يمسح بيمينه قطرات الدم المتناثرة ...يقفز درجتين درجتين ويمد سيفه عبر الشارع الفسيح مستوقفا أول سيارة أجرة ويعطي سائقها عنوان الطبيب .

■ ■ ■

• سرير من تراب!

فتح عينيه ونظر فزعا في اللاشيء أمامه، هذا إن كان هناك أمام أو خلف أصلا في مثل حالته ؟؟! لم تساعده عيناه، فالظلمة والرطوبة واللزوجة، وصوت الصمت الهادر، ورائحة الطين المنتشرة في كل مكان، و حركات الكائنات الصغيرة توتر الأعصاب، والحواس الطبيعية في سبات ربما يستعيض عنها الميت بالقدرة على "الإدراك" بشكل أو بآخر .

كان يرقد في اللحد وحيدا حيث سجي جثمانه للتو . بماذا يفكر الانسان عندما "يودع" الدنيا وما فيها، عندما يودع الأحباب والأهل، الأصدقاء والعائلة، الزوجة والأبناء، عفوا !! وليس للفلسطيني بالطبع فرصة هي بالحقيقة ترف "ليودع" أياً كان !! لأن الرصاصات أو الجنازير أو المعاناة أو القهر لا تدع له مثل هذه الفرصة المترفة!! بالنسبة له "ليودع" حتى آخر صورة لرام الله أو عينيها أو رفح .

بماذا يفكر الميت عندما يلحد بعد أن يودع الأحياء المنتظرين، أو بعد أن لم تتح له فرصة الوداع الأخيرة ؟! ربما يبكي وربما يندب وربما يتحسر على فرص كثيرة أضاعها في حياته ؟! لاحت له، تبدّت له، أشارت له، دعته ولم يقتنصها فضاعت، ربماولكن.

هل تراه يتحسر على قرارات اتخذها أو لم يتخذها بالعمل أو السفر أو الشراء أو الزواج من ثانية وثالثة حيث الصبا أو الجمال أو الجاه يُخلف بنت العم، أو عدم الزواج من أصله والانقطاع للزهد والعبادة، أو للصعلكة والسياحة، أو التسكع والحرية.

أم هل تراه يتحسر على سويعات قليلة اخترق فيها قلب الحزن الفلسطيني المخيم، وانتعش حبورا، وهو يلتقط ثمار التوت أو الخوخ أو التين من الجوار حيث أشجار فلسطين تبتسم لأهلها دوما !! أم تراه يتوق للّحظات القليلة السعيدة التي كان يقف فيها في المطبخ ليصنع صحن الحمص أو الفول ويقدمه ساخنا لأطفاله الصغار.

هل تراه كان يفكر بأن يعيد الكرة ويتغلب على خوفه وحنقه وانتظاره وقلقه ورغبته بالانتقام ويتخطى أحد حواجز الاحتلال بعد ساعات صلب طويلة في قيظ الشمس ؟! يتخطى الحواجز التي تدرب جنودها على التلذذ بتعذيب الفلسطينيين وإذلال العرب ؟! يعيد الكرة فيقطع الحاجز ليغيظ الجنود على الأقل ؟!؟! أم هل تراه يتحسر أو يبكي أو يأسف على تخطيه الحاجز دون أن يُنْفِذ رصاصة في صدر الإرهابيين الساديين الذين يقهقهون عاليا من ألم المريض وتباطؤ الشيخ، ورعب الصغير وتهادي الحمام .

عندما ألحد عبد الجواد كان قد ترك خلفه إمّا زيتونة، وبضعة أخوة يتخبطون، وخطيبة مخضرة كالدالية، وأطفالاً له حملتهم أحلامه فقط، وكان قد ترك ذاكرة مثقلة ومخيلة جافية، ودماغاً قلِقاً، فعبد الجواد لم يتحمل سعادة أن يكون له بيت وزوجة وأطفال كجميع خلق الله أو حيوانات الله، ولم يتحمل التخيل أن يرتبط بابنة خالته التي تربت معه منذ الصغر، وربما لم يتحمل منظر المستوطنة الواقفة كحريق ليل مباغت، والمنغرسة خنجرا في الجسد في القريب من بلدته.

لقد أصبحت الذاكرة والمخيلة_أو هكذا أرادوها_ أن تكون مرهونة بإرادتهم، بإرادة الاحتلال، قلِقَ عبد الجواد، وربما لم يتحمل عشرات من مثل هذه الصور فداسته دبابة انقضت عليه من باب المنجرة، هكذا بكل بساطة ؟!!!

كان عبد الجواد يرى في صدر أمه وفي عينيّ محبوبته مروج فلسطين وبرتقالة، جبال الجليل وأغنية، سفوح جبال الخليل ودير البلح، ولكنه ترك كل ذلك ومات ؟! ربما هو الآن في لحده يأسف على لحظة يأس طالته مع عفونة هواء الاحتلال، فتمنى الموت فيها وحصل، قبل أن يفعل الكثير ؟! في عينيها قبل انطفاء بريق أيامه لم يرَ سوى دبابتين ودمعة، طائرتين وزفرة، رصاصات كثيرة ولون احمر، وترك في النهار شبح ابتسامة.

كان عبد الجواد يفكر _ وربما أسقطنا ما نتمناه نحن الأحياء الأموات على عقله الصغير_ يفكر بالفرص الضائعة والقرارات الخاطئة وعمى الألوان السائد

في محيط العروبة الساكن،وبحر القومية الداكن،وأقطار المليار البائس، ومجال الأخوة الضيق إلى حد الفتق؟! وربما لم يفعل ذلك!

إنه في الحقيقة ودون فلسفة وكثر كلام، لم تكن له أحلام كبيرة،أو طموحات عظيمة،أو قرارات عديدة، أو ألوان كثيرة، أو قلق دائم، فلقد عاش ولم يتخطّ العشرين من عمره وهو يبتسم، ولم يقلقه أبدا فقر حياته وضيق مساحة بيتهم و شظف عيشهم وصخب إخوته، وألم أمه المتواتر، لأنه قدَّم يديه الصغيرتين وقلبه الأخضر لخدمة عائلته الكبيرة، حيث ارتبط مع الخشب في رحلة حب أوصلته القبر قبل اكتمال القمر ؟! وإنما كان قلقه الأثير أنه لم يستطع امتلاك سرير حديدي أو خشبي خاص به.

عمل عبد الجواد منذ الصغر في منجرة عم محمد أو الحاج محمد القريبة من بيتهم، فتعلم البناء ولذلك كره الاحتلال صنو الهدم، فصنع الكرسي والطاولة والخزانة وكان يهم بتحقيق حلمه الخاص بسرير خشبي، إلى أن طغى صوت الحديد المصفح الهادر على صوت الأذان في الحارة فانتصبت الدبابات المعادية في الشوارع وأمام البيوت، في الأزقة وأمام المسجد، في الزوايا وعند رأس جده العجوز، في المقابر وعند عتبة الروح، في غرف النوم وفوق الأجساد الذابلة، وداخل المنجرة، بكل بساطة انتشرت الدبابات تلفظ حممها في كل مكان.

مازال في لحده يتأمل، فلقد فاته أن يطعم الدجاجات المتراكضة أمام بيتهم فمن سيطعمها من بعده؟! ولقد فاته أن يجدّ الزيتون في أرض جده الذي سيبكيه طويلا، وسيفوته بالطبع إكمال الطاولة التي وعد بها دار (أبو امجد)، وسيتأخر عن توصيل الخزانة التي للتو أصلحها لجيرانه، ولقد فاته أن يسدد ثمن دلو حليب اشتراه من راعية غنم، وسيفوته أن يغسل أعضاء أخيه المُقعَد، ونسي أن يتأمل فرِحا سرب الحمام الذي يحط في شقوق كثيرة في بيوت الحارة، ونسي أن يطلب من أخته الكبرى أن تطبخ له السماقيّة، وسيفوته أن يشتري خاتما لخطيبته، وأزعجه أن لم يستطع الرد على استشهاد أخيه واعتقال ابن عمه، ونفي صديقه، وضرب معلمه الحاج محمد من قبل جنود الاحتلال، وفاته

بالتأكيد متابعة مونديال كرة القدم، ونسي أن يقبّل جبين أمه ويبتسم، ونسي _أو لم يمكنوه_ أن يتوضأ فيموت طاهرا.

مازال في لحده يتأمل أو يفكر ولما يمض عليه سويعات قليلة . لا لم يكن يتحسر، ولم يكن يندب أيامه القليلة السالفة، ولم يكن نادما، ولم يكن آسفا، فعلى الأقل للمرة الأولى في حياتة أو بعد حياته يودّع القلق و يمتلك سريرا له وحده ولكن من تراب.

■ ■ ■

● لا احد يريد أن يسمع؟!

كانوا جلوسا في صالون أم عامر القادم ابنها منذ يومين من هناك في القارة الأخرى، في الكوكب الآخر، ما بعد السماء، عبر كثير من الحواجز وعرق المشقة جاء، وبكثير من الأدعية والتسبيحات، وعبر حفر الاحتلال، وعبر كثير من المكابدة والألم . لقد جاء عامر من نابلس المنسوجة صمودا وإباء على خارطة الوطن منذ اكثر من 5 آلاف عام .

هم جلوس في صالون أم عامر وهو البطل القادم من البلدة القديمة -أو هكذا ظن نفسه -حيث يبيض الصبح قذائف وصواريخ لا تبقي ولا تذر، وينقضي النهار على هدير الدبابات وأزيز الرصاص دون طعام وبقليل من الماء وكثير من الوجوم، ويسفر الصبح ثانية على رائحة الجثث المتعفنة وعلى أكوام المنازل المدمرة، جاؤوا يهنئونه بالسلامة وما زالت صور الجنود الصهاينة الفاشيين يقتلون ويدمرون ويفتكون بكل ساكن ومتحرك، ما زالت الصور لا تغيب عن خاطره، بل وتتقل خاطره الى حد النزف .

كانوا جلوسا في صالون ام عامر في عمان، حشد من الأخوال والأعمام والأقارب من قريب ومن أباعد، وعامر قلق، متوثب، متشنج، ولكنه يرسم ابتسامة قسرية على محياه، لقد أوصته أمه ألا يظهر العبوس والتقطيب، وأن يبتسم

للضيوف رغم ما سمعته منه من أهوال وخطوب بين دموع جارية وزفرات حارقة، لقد ودّع الكثير من الأصدقاء شهداء أو جرحى أو معتقلين .

كانوا جالسين في الصالون الفسيح، إذ ما أن يسلموا عليه بحركات تلقائية طقسية حتى تتعالى صيحاتهم وهم يسلمون على بعضهم بعضاً وكأنهم قادمون من قعر الزمان أو من معركة جنين العصر وستالينغراد الأمة، رغم أنهم معا في ذات البلد والمكان يتقاسمون اللحم السمين والأرز و الكسل و الأكاذيب والتثاؤب والنوم الغليظ .

كان الجمع المؤتلف والقادم من أركان مدينة عمّان للسلام على عامر قد ائتلف باتفاق مسبق، يسلمون على عامر بكلمات الترحيب المعتادة: الحمد لله على السلامة، كيف الأحوال، كيف ما وراك، الله يعينكم . وعامر يرد: شكرا، الكل بخير، الحمد لله، بارك الله فيكم .

دخل أبو صبحي الصالون بكرشه العملاق وقامته القصيره وسلم على أم عامر وعلى عامر، وبدا يحتضن الحضور واحدا واحدا وهو يقهقه مرحا وطربا: وين يا جماعة ما شفناكم من زمان، إمبارح مريت عليك يا أبوخضر وين كنت ؟ وأبوخضر يجيب: والله دار أبوأحمد كانوا عازمينا على حفلة عيد ميلاد تمارا ابنتهم ؟؟ تلتفت أم خضر الى أم صبحي لتعاتبها على عدم حضور الصبحية عندها منذ ثلاثة أيام فترد أم صبحي مدافعة أنها اضطرت للذهاب الى أم شكري لتهنئها على قبول ابنتها فادية للعمل في مطعم الماكدونالد الأمريكي الصهيوني الشهير . وما أن جلس أبو صبحي حتى استأثر بالكلام، يساعده في ذلك متانة جثته ولطافة كرشه وارتفاع صوته وقوة حنجرته، ولم يمنع ذلك الضيوف الكرام أن يفتح كل اثنين متجاورين منهم حوارا جانبيا مشبع بالابتسامات والعتب والغمزات واللمزات والنكات .

كانوا جلوسا يلوكون أحاديثا يومية مكرورة، بل ومملة وما زال عامر مبتسما متجلدا صابرا يحاول جاهدا أن يغير مجرى الحديث فهوالبطل القادم -أو هكذا ظن- من تراب أرض أثقلها الدم وأسكرتها الأجساد الطاهرة، وحق له أن

يتكلم،والجمع جمعه والجمهور جمهوره، لاسيما وأنه خرج من الوطن برجاءات متتالية من أمه القاطنة هناك حيث لا مكان لها في فلسطين .

كانت الرحلة من نابلس حيث يقطن عامر الطالب في السنة النهائية في جامعة النجاح الأهلية إلى أريحا ثم عمان، رحلة لا تقارن صعوبة ووعورة برحلة قافلة عير تسبر أغوار الصحراء الكبرى في العمق الجزائري، ولا تقارن جهدا ومشقة برحلات الحجيج القادمين من مصر وما وراءها في عصر المماليك البرجية عندما كانوا يقطعون المفاوز والفلوات ليصلوا بيت الله الحرام في مكة المكرمة فتتعاظم الحلاوة ثلاث مرات، حلاوة الوصول بالسلامة، وحلاوة الراحة بعد عناء، وحلاوة الصلاة على الحبيب المصطفى.

كانوا جالسين في الصالون وأم عامر تقدم الشاي والفطائر والكعك المحلى والفواكه والعصير والقهوة، وأبو صبحي دوما يطلب المزيد ولا تهدأ شفتاه عن الكلام ولا فمه عن المضغ . لم يبقوا شيئا إلا وتحدثوا فيه حتى أثارت أم صبحي أهمية وفعالية مسحوق الغسيل (تايد) فظهرت الاختلافات بين مشجعي مسحوق الغسيل (أومو) وبين مشجعي (برسيل) وبين أحباء (تايد) من ربات البيوت وبعولتهن الجالسين، ودارت بين الأطراف الثلاثة مناظرات وحوارات ومعركة حامية الفطيس وليس (الوطيس) .

أمسك عامر بدفة الحديث حيث انخرط بعد جهد في الكلام عن مقاطعة البضائع الإسرائيلية والأمريكية متأهبا للانتقال لسرد تجربته في الصمود في وجه الاحتلال الغاشم، وهي ما ظن الجمع برغبتهم في سماعها، إلا أن (أبوخضر) كان أسرع منه وانتقل بالحديث عن دار (أبوحسين) الذين يقاطعونه ولا يزورونه منذ ستة أشهر واخذ يعدد مساوىء (أبوحسين) القميء وزوجته الحيزبون، والقوم بين رشفات الشاي وتحبيذ هذا النوع من الفطائر وذاك انقسموا إلى مشجع ومؤيد وصامت شامت أو متفرج. ولا من يقول كلمة تمنع النميمة والطعن في (أبو حسين) وعائلته .

لم يتح الجمع الجالس باسترخاء في بيت أم عامر لعامر أن ينفس عما به، لينفث دخان صبره وحريق صدره، وأشجان أيامه، أن يتكلم،أن ينفجر، أن يصب أمله، أن ينزف ذاكرته، ان يظهر حزنه، أن يعبر عن حنقه، غضبه،تعبه، أمله، صبره. وهو طوال الطريق الصعب يشحذ الذاكرة بالكثير من الصور التي رآها، آلاف الحوادث التي مرت به، وعشرات المواقف التي عاشها، و عديد المآسي بتفاصيلها الصغيرة والصعبة أو العنيفة أو المريرة، والرزايا التي تذيب القلب وتتلف الروح، وكان طوال الطريق يرتب ما يريد قوله فهو وإن خرج مغامرا لرؤية أمه فهو في مهمة وطنية، يجب أن يرسم الصورة الحية كما عاشها للجميع هناك، للجميع من الأقارب والأنسباء والأصدقاء والمجاورين والعالم كله!؟ وإلا فما فائدة هذه الرحلة، عدا عن اشتياقه المسبب لرؤية أمه الوحيدة ؟؟!

حاول أكثر من مرة أن يسحب خيط الكلام ويتكلم إلا أن أبا صبحي وأم صبحي والجلوس جميعا كانوا يعيدون الإمساك بالخيط وتبادل الأحاديث في ما لا ينفع وربما يضر، إنهم لا يريدون أن يسمعوا إلا أنفسهم، لا أحد يريد أن يستمع له وهو القادم من القارة الأخرى و الساقط كسفا من السماء البعيدة . أضاء في باله بيت من الشعر فأخذ يردده مع نفسه حيث يقول: (إلهي قلّ صبري واحتيالي، وضاق الصدر وانصرمت حبالي، إلى من يشتكي المسكين إلا إلى مولاه يا مولى الموالي) .

كادت الدموع تطفر من الوجه الباسم لعامر الصافن في وجوه القوم ذوي الألسنة التي لا تهدأ ولا تكل عن الزعيق، لقد دفن عامر صديقه الحميم بيديه قبل أيام قلائل وبعد انسحاب جيش القتلة من (شكيم) الكنعانية البطلة، وسحب جاره الجريح من عرض الشارع إلى داخل البناية بين صراخ أطفاله وعويل النسوة، وبكى كثيرا على اعتقال عشرات الأصدقاء الذين لم يحالفهم الحظ بالاختباء أو التواري بعيدا عن الأنظار، لقد كادت الغصة تعلق بحنجرته حينما نظر إليه رجل المخابرات على الجسر ولكن الله ستر، شريط يمر سريعا بينما هو بينهم لا يظفر بلحظة إنصات توسلها في عيون الجمع الفظ دون جدوى، إنهم لا

يريدون أن يستمعوا إليه لأنهم لا يريدون أن يستمعوا لفشلهم، ولخنوعهم، ولعبوديتهم، ولتقصيرهم، ولتراجعهم، ولتخلفهم، ولتثاقلهم .

كانوا جلوسا في صالون أم عامر ومازال عامر واقفا لأكثر من نصف ساعة لم تستفز أحدا، إنهم لا يريدون أن يستمعوا إليه، فلماذا الكلام حيث القبور.

بعد بضعة أيام شاقة إثر رحلة عبر الصحراء والحواجز والألم، كان عامر يجلس مع قطط الحي البطلة في نابلس يصرخ عاليا ويموء .

■ ■ ■

• حب على الحاجز !

كان بائع الخضرة يحثّ الخطى للوصول، وكان بائع الأدوات المنزلية يحمل بضاعته في صناديق كرتونية في مؤخرة سيارة الأجرة، وكان الجزار مبكر القدوم يقطع ويفرم و"يشك" اللحمة في أسياخ ويضعها على كانون من الفحم ويجهزها للسائقين، وكان بائع المشروبات الساخنة قد حوّل سيارته إلى "خان" يجهز فيه من خلال مجموعة من الأباريق، وشعلة موقد الغاز الماء الساخن ليمزجه حسب طلب الزبائن فيتحول شايا أو قهوة عربية أو غربية "نسكافيه"، وفي زاوية من المكان كان أحدهم يضع عربته المحملة بالموز ويدلل عليها للحشد المتكدس صائحا: ريحاوي يا موز، ريحاوي يا موز نسبة إلى مدينة أريحا حيث الموز المشهور .

عندما تصل إلى المكان – هذا ان استطعت الوصول – تجد نفسك خلف بحر زاخر من البشر الذين يقفون وظهورهم تنظر إليك ؟! لأن عيونهم شاخصة بالاتجاه الآخر . عشرات السيارات الصفراء تتناثر على جانبي الشارع المسفلت المقطوع قسرا . لا تقدر أن تترجل من السيارة إلا على بعد مئات الأمتار من الحشد فتستطيع أن تتأمل الباعة المنتشرين جميعا وبينهم قد ترى بائع المثلجات "البوظة" المتنقل الذي يحمل صندوقه ويصيح بصوت مميز: شوّبت، شوّبت،

ليحتك في صيف رام الله اللطيف أن تبتاع منه بوظة العريس الغزاوية أو الأرز النابلسية أو رُكَب من رام الله .

في المكان حيث ينتصب الظلم وتلمع عيون الفاشية سوف يعتصرك الألم ويتنامى فيك الإحساس بالظلم حتى أطراف أصابعك، وربما يتخطاك ليغيّم في سماء المكان ويضرب بذيله طيور الدوري والبلابل والحمامات التي تصيح مقهورة فوق رأسك ورأس أهلك ورأس الحشد ورأس الجنود الذين يتحركون بصعوبة كالرجال الآليين من كثرة ما يلفون به أجسادهم من أسلحة وقنابل ومِدى ودروع وأرواح مدمرة ونظرات زجاجية وقلوب عمياء .

قبل أن تصل إلى الحشد الذي يتراوح عدده عشرات أحيانا إلى آلاف في حين آخر أو يوم آخر، لا بد أن تمر بالباعة من كافة الأصناف كما قلنا، وبسيارات الأجرة بينما النسيج الأخضر يلوّن جانبي الطريق والسماء زرقاء، هكذا كتبت رِفقة في يومياتها التي تنقل عبر البريد الإلكتروني يوميا إليه هناك في البعيد القريب والى عدد من الصويحبات عبر الفضاء العالمي المفتوح .

أصل إلى حاجز سُردا العسكري الذي تحتله ثلة محصنّة من الجيش الإسرائيلي كما أصله كل يوم، نفس الروتين، نفس الأسلوب، نفس المشاهد، ولكن بصعوبات متغيرة : اتصل بمن وصل قبلي من الأصدقاء إلى الحاجز ممن يصحون مبكرين مع أصوات الديوك أو الدجاجات، وينطلقون كالعاصفة أو كالنور إلى الحاجز أو "المحسوم" بالعبرية المسروقة من العربية، مستعلمًا منه عن طبيعة الجنود القابعين وعددهم وطريقة تعاملهم اليوم ومدى فظاظتهم وعنفهم و"غلبتهم"... فهم قد يسمحون حينا بمرور الرجال من هم فوق الستين عاما أو الخمسين أو الخامسة والأربعين أو السادسة والأربعين بحسب مزاج الجندي أو الضابط أو رئيسه، وكل ذلك بعد انتظارات طويلة مملة مرهقة لساعات، وقد يتغير فيها القرار الجائر ليتم السماح بالمرور بطريقة أسوا مثل جمع البطاقات الشخصية وحجزها لفترة طويلة ثم الأمر بالمرور خمسة خمسة بعد التدقيق أو واحدا واحدا، أو سبعة سبعة، يفصل بين مرور كل مجموعة وأخرى ثلث ساعة أو

ساعة أو أكثر، وأحيانا يأمر الجندي المتثاقل المتباطئ الحاقن أحد الواقفين ليرتب له الهويات حسب تسلسل الأحرف بالعبرية (وبالمناسبة فهي كالأبجدية العربية) أو حسب تسلسل الأرقام أو حسب تسلسل أسماء الأمهات ... وإذا أخطأ الرجل يعيد الجندي خلطها، ويطلب نفس الأمر من شخص آخر بعد كثير من اللكمات والشتائم والصراخ . هكذا كتب باسم الشاب الموظف في سلطة النقد الفلسطينية لعدد من أصدقائه في دبي و عمّان ولوس أنجلوس عبر المجموعة التي يشتركون بها بالأحاديث والأفكار والهموم والأحلام والتواصل في الشبكة العنكبوتية العالمية "الإنترنت" .

على مدى ساعات الانتظار، وكلما أظهر الحشد تذمّرا، أو بدأ يشتم الحال والاحتلال بصوت عال، أو كلما كثر عددهم وتقدموا صوب الجنود، يقوم أحد الجنود الأراذل بقذف قنبلة غاز أو قنبلة صوت أو قنبلة دخان تميزها الجماهير من لونها الأسود أو البرتقالي، فيتبعثر الحشد صائحا متراكضا بكل اتجاه، ويعود الفاشيون للتحكم بالحركة والمرور بصيغة أو أسلوب جديد قد يسمح للنساء فقط بالمرور مثلا ويمنع الأزواج، أو يسمح بالمرور حسب الشكل وبإشارة من إصبع أحد الجنود الساديينّ المسربلين بالدروع الواقفين شرا على صدر الوطن، هكذا كتبت رِفقة لأحد صويحباتها تكمل ما انقطع معها من حوار عبر الحركة المسموحة من منخر الأثير .

عندما يتصل باسم بمن سبقه إلى الحاجز من أصحابه يستعلم، ثم يقرر أن يذهب إلى العمل أو يداوم على الحاجز أو يبقى بالبيت . وفي هذا اليوم وصل إلى الحاجز، واشترى بوظة وسلّم على كثير من الأصحاب القادمين من قرى وبلدات مختلفة ذاهبين عبر الحاجز إلى رام الله ... تخطى الخندق الذي حفرته جرافات الاحتلال في عرض الشارع، ووقف على التلة الرملية المصطنعة بجرافات الاحتلال أيضا ليطل مع المئات الآخرين عن قرب على الحاجز المنتصب وسط الشارع والذي تحمي جنوده ثلاث ناقلات جنود مصفحة تطل عليه من التلة الخضراء المجاورة.

بدأ الجندي يصيح بلغة عربية ركيكة: إلى الوراء، إلى الوراء،ارجعوا، ارجعوا وإلا "بنطخوا" ملوّحا ببندقيته وبقنبلة غاز سرعان ما ألقاها، وألحقها برشقات رصاص من رشاشه أصابت اثنين من (الغوييم) الذين تدافع الناس رغم الرصاص لنقلهم بالسيارات إلى الوراء، ولوّح جندي آخر بيده إلى سيارات الأجرة أن تنصرف وبدأت الرشاشات في قذف حقدها فلم تبق سيارة إلا وكان من نصيبها زجاج مكسور أو عجل مثقوب أو جسد مخردق، وأصبح المريض خاليا حتى من الباعة الذين تركوا بضائعهم و أطلقوا سيقانهم ترجو السلامة ... ولكن بعض من الجماهير سرعان ما عادت لتتجمع رغم الجرحى والحنق و الكراهية والرغبة في التقيؤ، ورغم اقتراب الساعة من الواحدة ظهرا، استطاعت جماعات أخرى من الفتية أن تتسلق التلال البعيدة المجاورة صعودا وهبوطا بين الحجارة والأشواك والتصميم وتدخل رام الله بعيدا عن أعين جنود الدوريات المتحركة.... لقد قرر باسم هذا اليوم العودة فالدوام على الحاجز وفي سلطة النقد قد قارب على الانتهاء، إلا أن رِفقة عبرت الحاجز بعد انتظار قاتل متجهة إلى رام الله حيث بيتها .

وقف باسم على الحاجز بعد أن سلّم بطاقته الشخصية للجندي المفترس، وركَن في زاوية يتحادث مع زملاء له بعد رشقات معتادة من الرصاص وقنبلة غاز وقنبلتين دخان، والساعة قاربت الحادية عشرة صباحا ...صاح الجندي العابس التائه: باسم أخمد، فتقدم باسم مخترقا الحشود المتجمعة أمام الحاجز ليصطدم بالطالبة رِفقة من جامعة بيرزيت التي كانت تمر أمامه في طريقها حيث أنهت محاضراتها متجهة إلى رام الله ...آسف أعذريني، فردت عليه لا أسف ولا عذر فالحالة "نيلة" ! وتجاوزها باسم مسرعا ليأخذ هويته من الجندي المتكئ على المكعب الاسمنتي ....استوقفه و تفحصه الجندي من أعلى إلى أسفل ثم أشار له أن يمر .... فتقدم باسم بين الأسلاك الشائكة والحواجز الخرسانية المنصوبة على طول الشارع مشكلة مسربا إجباريا لشخص واحد أو شخصين فكانت أمامه رِفقة وتجاوزها وهو ينظر في هويته حيث لا أخمد و إنما أحمد! بادرته بالحديث قائلة: إنني أعرفك ! فتعجب باسم الذي ما زال يحث الخطى

ليبتعد عن الجنود قبل أن يغير أحدهم رأيه، فنظر إلى الخلف وقال: حقا ؟! قالت: ألست باسم أحمد ذاك الخطيب المفوه الذي كان يأتي دوما ليتحدث في المهرجانات أثناء الانتخابات في الجامعة، ويشد حديثه الطّلي آذان المستمعين ؟! فابتسم باسم إذ سمع مديحا لذيذا لم يسمعه منذ فترة، ابتسم في عنف الحواجز ورائحة الغاز وفي إصباحات النفوس القلقة، وإذ القلوب بالغة الحناجر، ابتسم رغم ساعات الانتظار الطويلة، وعرق الصيف وتمنيات الخلاص من اليهود التي تنفجر دعوات من "سكّان" الحواجز التي تفوق المائة المنتشرة في طول فلسطين وعرضها ..... أحس ببرودة لذيذة وهدوء مفاجئ وانشراح خاطر ونغمات وردية وعبير ناعم يلف كامل مسام جسده، فأبطأ الخطو في الشارع الممتد وراء الحاجز الذي تحول إلى ممشى إجباري على مسافة تزيد عن الكيلومتر مرورا بتلال رملية وعوائق ومكعبات خرسانية وصولا للحد الآخر من الشارع حيث السيارات الصفراء تنتظر ....أحس بالاخضرار وانتبه ربما للمرة الأولى كم هي السماء زرقاء وجميلة ..... أبطأ الخطو، ونظر مليّا تجاه رفقة التي كانت تتهادى كأنثى أيل مطمئنة وتأملها برحابة، وقال: ألستِ من صدمتها عرَضا قبل دقائق وقالت لي أن الحال أسود، قالت: بل قلت أن الحال "نيلة" ! وعلّقت: أراك زدت ألوانها قتامة . فضحك وضحكت.

في الأيام التي يغلق فيها الإسرائيليون الحاجز بشكل كلي ينطلق باسم إلى مقهى الإنترنت في بيرزيت ويتواصل عبره مع رِفقة، ومع العديد من أصدقائه حيث القطع الإسرائيلي الجبري للحركة والطريق والمرور ..... لكن باسم في صبيحة كل يوم أصبح يتصل هاتفيا برِفقة ويستعلم عن وضع الحاجز لا سيما وهي تأتي من الضفة الأخرى للشارع من رام الله باتجاه بيرزيت فيتحصل على تقرير أوّلي، إلا أن دوام التواصل مع رِفقة وانبثاق الود وسرور اللقاء و الأحاديث المتبادلة، وإن كانت في غم الواقع الأليم، جعله يقرر التواجد يوميا ما استطاع على الحاجز البائس ليكون في استقبال رِفقة مع كثير من الكلمات الجميلة والابتسامات والبطاقات بل والورود أحيانا، رغم قنابل الدخان ورصاصات الغِل

التي تفرق، وتجعل من الميسور شاق ومن القصير طويل، ومن السرور رعب، ومن البدهي عقدة .

لم ينتظر باسم طويلا ولم تنتظر رفقة طويلا، فخير البر عاجله .... عبر الهاتف قام والد باسم المقيم في مدينة غزة بالاتصال بوالد ووالدة رفقة المقيمين في مدينة رام الله وخطب رِفقة لولده باسم ... وسط موجات من الدموع التي بللت لحيته البيضاء، وبللت وجه أم باسم وأم رفقة اللتين تستمعان للبث المباشر .... قام العروسان في اليوم الموالي بالاحتفال بخطبتهما بإطلاق أبواق سيارات الأجرة المتجمعة عند حاجز سردا بوجود الأصدقاء وبحضور الجماهير المنتظرة دوما، وأمام أنظار الجنود والضباط الصهاينة الذين يحرّمون الحياة ويتلذذون بالعنف ويشعلون الحرب .... لم يبتسم أحد منهم فهم لم يخلقوا لذلك، بل اهتاجوا وابتأسوا وسخطوا، و فرقوا الحشد المبتهج رغم أنف الاحتلال برشقات طويلة من الرصاص أسالت الدماء وأسقطت زوجا من الحمام الحائم فوق رؤوس المرابطين، وكثفت الحزن، و راكمت الألم .

في اليوم الثالث كان باسم يكلم رِفقة من مدينة غزة، والأشواق تعملقت والحب تنامى وقد تيبست الدموع عبر الفضاء العالمي، حيث اعتقلته القوات الإسرائيلية على الحاجز ورحّلته، معللة الفجور والجور والفاشية بأن مصدر بطاقته الشخصية مدينة غزة حيث لا يسمح له التواجد في "يهودا والسامرة" ، وهي الضفة الفلسطينية منذ الأزل رغم عبث الاحتلال ؟!

■ ■ ■

• سكين الروح !

عندما أمسك السكين كانت حياته قد تكبسلت في مخيلته بلحظة التماع فكرة القتل مع ارتفاع الأداة فوق مستوى الروح، لم يكن يظن أن للسكين قوة هائلة، قوة رهيبة ... لقد امتلأ بتلال من التصميم وجبال من العزيمة وكتل

متراصة من الاندفاع للقتل، وكانت لحظة التماع الفكرة لحظة اشتعال فجئية في ظل خبو النفس وفتور العزيمة، ومظنة الانهيار .

سقط يقبل الجبين والرأس والخد واليدين والقدمين، تسبقه آهات حزينة، ودموع مخروطية انسابت حتى تساقطت على جسد أخيه المسجي أمامه كغيمة فاترة أو طيف حرية ...كيف يستطيع الإحاطة بهذا الكم الهائل من الألم المتصاعد الذي تجاوز فيه الجسد والقلب إلى الروح، و إلى الهواء ومخارج الأنفاس، حتى أصبحَتَ تشتمُ رائحةَ الألم في أرجاء الغرفة وعلى الحوائط، وتشاهد بأم عينيك لون الدموع المتفجرة ولون الصرخة المكفهرة ولون البكاء النازف ... سقط يقبل في أخيه اليدين والرجلين، وسقطت منه قطع روحه المجتاحة ... شاهدها كل من في الغرفة بعيون واجفة وحزن صاخب، لقد كان محمد قطعة كبيرة من روح أخيه، فسقطت نتفا مع دموعه وألمه وقلبه المعتصر ... تقدم أحد الحضور والتقط قطعة ومسح بها جبينه، وكلما التقط أحدهم قطعة تتناثر من عيني وفم وجبين ويدي نبيل قطعا أخرى، حتى ظن الجمع المحتشد حول الجسد الملفوف بالعلم أن روحه كلها قد تفتت وتناثرت مع موت محمد .

كان الشهيد محمد مسجى في مستشفى الشفاء في مدينة غزة، وكان الأخوة والأحبة والأهل والأصحاب قد تقاطروا إلى المستشفى ممنين النفس بنظرة لوجه محمد المكرم المنير، أو للمسة من جسده قد تشفع لهم يوم العرض الأكبر، فاغترفوا قطعا من روحه .

أمسك نبيل السكين وبدأ يقطع البصل والبندورة والخيار في المطبخ، ويجهز طعام العشاء لأبناء أخيه أيتام الأم والأب، فالأم قد ماتت منذ أربع سنوات والأب عاجلته رصاصات الغدر والقهر والعذاب والنذالة في عملية اغتيال طالته باعتباره أحد قادة كتائب شهداء الأقصى في انتفاضة الأقصى المباركة ... ما إن أمسك السكين حتى تحولت حياته إلى ذكريات محفوظة، مكبسلة، مشرنقة، وبان منها للحظات ما يخص العلاقة المميزة بينه وأخيه الأكبر وخطيبته ... كان نبيل

سيتزوج خلال عام بمشروع من أخيه وجاءت الانتفاضة لتمتد الخطبة قسرا إلى الدرجة التي تراجعت فيها عائلة الخطيبة، رغم توسلات محمد، وفسخت الارتباط ...... فانخراط الأخوين في المقاومة كان همسا تناقلته الألسن، وتحدثت فيه العيون، وخافته خطيبته فارتبطت بقدر آخر .

كان للسكين المرفوعة قوة هائلة، قوة رهيبة أعادت له جزءاً من روحه التي تناثرت وذرفت على جسد أخيه، والتقطها الحضور وامتصوها عبر خلايا جلودهم ... كانوا يعرفون أن الروح حياة جديدة و إرادة جديدة تزين درب المقاومين بعدد أكبر من الرجال بل والنساء اللواتي كان لهن في نموذج محمد وروح نبيل نبع صمود، وبئر ارتواء نضالي .

التمعت في ذهنه فكرة القتل ردا على استشهاد أخيه، رغم مروره بلحظات كانت نفسه فيها قد خبت وعزيمته قد فترت وروحه قد ذبلت بمقتل محمد ... التمعت في ذهنه الفكرة، وكان رغم انخراطه في خلايا العمل السري يتجنب القتل غير المبرر أو مشاعر الحقد اللامتناهي، ويحاول أن يجد طريقا للمقاومة دون هذا أو ذاك، ولكنهم قتلوا أخاه دون أن يتيحوا له أي فرصة للمقاومة بمنطق الفرسان أو الشرفاء..... لقد كانت عملية نذلة، قاموا فيها بقتل محمد وخمسة من الأطفال كانوا بجواره صدفة .

حاول أن يتكهن بشعور الآخر حين مقتل عزيز لديه، فلم يجد سببا يمنعه من تجريده من المشاعر، حاول أن يضع نفسه مكان أي يهودي قتيل فامتلأ حقدا وغلا ... لكنه عاد وأثار ذاكرته، فالمتطرفون اليهود لا يعترفون بالآخر (بنا) بل ويعتبروننا أغراب (غوييم) يجب طردهم أو قتلهم وبأوامر من شريعة موسى كما يدعون، يجب اجتياح أرضهم وأجسادهم وأرواحهم ... لا فرق في المشاعر ربما بين الطرفين، ولكن الفرق في عدم القدرة على تجاوز الألم ربما، أو السعي لتهميش و إنكار الآخر، الفرق بعدم الرغبة بتفهم مشاعر الآخر، ورغبة الآخر (نحن) بالأمان والاستقرار والاستقلال مقابل أنانية العدوان وغطرسته وقيم الإخضاع الفاسدة التي يحملها ضدنا، إن المعادلة عندنا بسيطة زوال الاحتلال مجلبة للأمن.

ما أن أعد طعام العشاء لأبناء أخيه الثلاثة في بيت العائلة الكبير، حتى التصقت السكين بكتفه ولم تبارحه، فكان يسير في الشوارع والسكين قد أصبحت دون إرادة منه جزأ من جسده لا تبارحه ولا تتركه، فأشار إليه الجيران والناس جميعا والأطفال في الشوارع باسم "أبو سكين الكتف" ودارت حوله في الأيام التالية شائعات كثيرة حول جنونه أو اتصاله بالجن، أو أنه رجل مبروك أو من أولياء الله الصالحين، فكان "أبو سكين الكتف" يعمل جاهدا على تغطية كتفه بالكوفية كي لا تبرز السكين من فوق القميص أو تحته ليتخلص من نظرات الآخرين وتعليقاتهم ... يخوض معركة كل صباح مع السكين التي ترفض الخروج من جلده وجسده أو الاختباء به عن الناس .

على أحد الحواجز المقامة في الطريق الأسود إلى خانيونس شاهده ضباط وجنود الحاجز بعد أن تجاوزهم فشهروا السلاح، واختبؤوا كالضباع وراء متاريسهم، وفي شهقات عشيقاتهم، وبين أكوام الحجارة الفلسطينية التي تنبذهم، وبطول أسرّتهم، وثقل الدرع الذي يرتدونه، وبعرض دنياهم ... لقد خافوا من سكين ساكنة تشن حربا على انسان بروح مجتهدة، وتلتصق بجسده علها تعانق فيه الروح فتتحول إلى راجمة صواريخ أو قذيفة مدفع أو قنبلة حارقة أو رصاصات رشاش ......وكلها استخدمت لقتل محمد الذي تحول إلى طيف في سكين، أو جرح في سقف الذكريات، أو إلى دموع مخروطية تفتّت إلى قطع من روح ... لم يستمع نبيل لصرخات العيون المرعوبة والصرخات العبرية والأيادي الراجفة، والأجساد الراسفة في الحديد وراء الحاجز إلى أن انطلقت رصاصات كثيرة .... تكومت، تجمعت الرصاصات ولم تصب في انطلاقها إلا السكين المتوسد كتف صاحبه الأيمن، سار نبيل مبتعدا دون وجل ومحمد يحميه .

لم تستطع مشاعر القتل والقوة الجبارة في نبيل أن تتحول إلى أداة تفجير، وإنما تحولت إلى أداة دفاع وآلة رد العدوان في صورة من صور تقرير المصير للروح المجتاحة .

بيرزيت في 2002/9/8

■ ■ ■

• عجين رقية

كانت تجلس على الأرض في المطبخ الفسيح، لقد كان المطبخ بمساحة غرفة من غرف البيت، هكذا أرادت هي عندما بدأ التخطيط لبناء البيت . لقد قالت له حينها وهي تجلس على الأرض في المطبخ الأول في البيت القديم، وتشبّر بيديها يمينا ويسارا صائحة: أريد مساحة واسعة فسيحة، ملعبا ... لأجلس فيه و أرق وأعجن على مزاجي .

لذلك كانت رقية تجلس صباحا كل يوم تقريبا على الأرض، في المطبخ الفسيح لتمارس شغفها، فهي تتقن فن الخبز وطالما أتحفت جيرانها بأنواع الخبز والكعك والمعجنات، خبز طابون وخبز رقاق وخبز مشروح وخبز فرنجي (كماج) وأنواع الكعك ... كانت تتمنى أن تفتح مخبزا لتحول متعتها في العجن والخبز إلى مهنة، ولكن انعدام الفرصة وضيق ذات اليد وضيق الحال خاصة مع سوء الأوضاع الاقتصادية التي رافقت انتفاضة الأقصى جعلت من أحلامها سرابا، وجعلت من (قعدتها) لتعجن وتخبز وهي طرِية مبسوطة لا تطول، محدودة وزائلة.

في البداية تقلص حجم القعود نتيجة انقطاع الطحين عن القرى بسبب الحواجز العسكرية الكثيرة، فكان يتوفر بكميات تتخاطفها المخابز وتعرين عليها مسبقا مما جعل المحلات تخلو من الطحين في كثير من الأحيان، إلا أن رقية كانت تتنقل من قرية إلى أخرى بحثا عن الدقيق فهو متعتها وهو هوايتها وكثيرا ما تجده فتهش وتبش ويرتوي قلبها الظامئ للرق والعجن .

ومع تقدم الأيام واحتدام الأزمة لم تعد المشكلة فقط في الانقطاع المتذبذب للطحين في الأسواق أو عدم التمكن من الانتقال لجلبه بسبب انتشار الحواجز، وإنما أصبح السبب الرئيس تغير عمل زوجها وانخفاض دخله، لقد كان أبو حسان عاملا من عمال أحد المطاعم داخل الخط الأخضر أي في أراضي 48 أو ما أصبح (إسرائيل)، وبعد اندلاع المواجهات واشتداد العمليات ضد الأهداف

الصهيونية طُرد من عمله، ولم يستطع الدخول عبر المنافذ الترابية نتيجة انتشار الجنود والدوريات والدبابات وناقـلات الجنود والأسـلاك، والسـور الذي بدأ الإسرائيليون العمل به ليفصل الضفة الفلسطينية عن الداخل مع قضم آلاف الدونمات بالطبع، إلا أن (أبو حسان) استعاض عن عمله هذا بالعمل في مطعم قريب من بلدته في مدينة طولكرم فانخفض مدخوله المادي إلى النصف .

رغم أن (أبو حسان) تسلم مسؤولية الفول والحمص التي يتقنها نتيجة عمله في المطعم اليهودي إلا أن أذواق الفلسطينيين تختلف بالطبع عن أذواق أولئك القادمين من روسيا وأوكرانيا وبولندا باعتبارهم أصحاب الذوق الرفيع ؟! في الحمص والفول ؟! لقد أهمل أبو حسان إغراق الفول بالزيت والإكثار من الشطة، كما أهمل طريقة صنع الحمص الفلسطينية الأصلية فعاف الزبائن المطعم فكان حظه أن يُركَل قفاه و يجلس مع زوجته في المطبخ الفسيح دون عمل ولا يحزنون، لقد سرحوه من عمله هذا في طولكرم ليس فقط لسوء طبخه وإنما في الحقيقة نتيجة اقتحام القوات الإسرائيلية للمدينة واستقرارها فيها وبالتالي إغلاق جميع المحلات التي مع تواصل شهور القتل والحصار والإغلاق ومنع التجول كانت تعود لتفتح بحسب ما يقرره (راديو إسرائيل) أي أحيانا من السادسة صباحا إلى العاشرة صباحا أو من التاسعة صباحا حتى الواحدة ظهرا أو من السادسة صباحا إلى الخامسة مساء وهكذا، مما جعل إمكانية عمل (أبو حسان) القادم من قريته إلى طولكرم في وضع شبه مستحيل فتم تسريحه، لاسيما أن صاحب المطعم فوق كل ذلك قد مني بخسائر فادحة نتيجة استمرار العدوان مما أدى به للتخلص من الجميع وبقي لوحده يعد الطعام الذي اقتصر فقط على الحمص والفلافل ويقدمه لمن تيسر من الزبائن الخائفين المرعوبين الذين لا يجلسون أو ينتظرون خوفا من مرور دورية أو دبابة تطلق النار عشوائيا أو تقوم بحملة مداهمات و اعتقالات في المحلات كما حصل عشرات المرات . أي أن زبائن المطعم أصبحوا زبائن(سفري) لا يستقرون حتى يطيرون .

إذاً قعد أبو حسان عن العمل فلم يعد هناك إمكانية للشراء الشّرِه للدقيق الذي كانت زوجته تصنع منه أنواعا متعددة من الخبز والكعك و المعجنات فأصيبت رقية بالانقباض ثم الأرق والقلق الذي تعاظم ليتحول إلى الاكتئاب.... لم تكتئب عندما استشهد ابن أخيها، ولم تكتئب عندما اعتقل زوج أختها ولم تكتئب عندما هدموا بيت خالتها، ولم تكتئب عندما أصابوا أخاها في عينه ففقأوها ولم تكتئب عندما فرض على قريتهم حظر التجول لأيام طويلة أشاعوا فيها الرعب والدمار، ولم تكتئب عندما حرقوا زيتونهم .....لأنها كما كانت تقول امرأة مؤمنة والمؤمن صابر مثابر .... ولكن أن تنقطع عن حياتها والعجين فألف لا .... إنها تحب تلطيخ يديها يوميا بالماء والطحين وتقعد لتغني لفيروز التي لو سمعت صوتها لألقت بنفسها من برج العرب في دبي، على كل لم يكن يسمعها إلا الجيران وهم يتحملون صوتها مقابل كرمها بالمنتجات التي تقدمها لهم تلك المصنوعة من الدقيق.

وقف أبو حسان يصرخ في وجه رقية إننا لن نشتري من الآن فصاعدا إلا ما يقوتنا من طحين لصناعة خبزنا اليومي فقط وهو عدة أرغفة، بل أن " أبو حسان " تمادى وقال أنه سيشتري ما يريد من المخبز المجاور فذلك أرخص كثيرا فوقع هذا الكلام على رأس رقية كالمطرقة قائلة: ألا يكفيك أنني أصنع بيدي ما يقوتك وعيالك، دون أي طلبات كأي امرأة أخرى تسعى للجديد من الملابس والحلي، ألا يكفيك أنني أوفر عليك الكثير ولا أطلب زيارة لأمي هناك في البعيد في الخليل، إنني غريبة هنا رغم جيراني فلا أم ولا خالة ولا عمة وأنت تريد قتل إرادتي ومتعتي الوحيدة في صناعة الخبز والكعك وتريد أن تراكم فوق اكتئابي اكتئاب. قال أبو حسان: إن وضعنا المادي لم يعد يتحمل حتى صنع الخبز، لأن شراءه أصبح أرخص بكثير مع احتساب المحروقات والبحث المضني عن الدقيق وما تتصرفين به أبو تهدينه للجيران وكأننا نجلس على بنك ..؟

لم يعجب هذا الكلام رقية فهي وإن كانت مسرفة أحيانا إلا أن إسرافها كان يجلب للبيت تبادلا للبضائع حيث كان الجيران يزودونها بالزيت أو الزيتون أو

المربى أو المخلل أو الأجبان مقابل الكثير من المعجنات أو الخبز بأنواعه التي كانت تهديهم إياه ... فقعدت في المطبخ الفسيح لأربعة أيام وهي تبكي وأبو حسان يكاد يتفتت من الغيظ، وفي اليوم الخامس ذهبت رقية إلى مخبز البلد وأجرت مع صاحبه حوارا ومفاوضات مكثفة انتهت باتفاق مرضٍ وهو أن تصنع في بيتها خبز الرقاق وبعض الفطائر التي تم تحديدها وأنواع الكعك وأن يتكفل المخبز في توفير الدقيق لها مجانا ويعطيها نسبة من الأموال لقاء المواد الأخرى والبيع .

عادت رقية لتجلس واضعة رجلها اليسرى تحت آليتها ومادّة اليمنى فرحة في المطبخ الواسع وترق وتعجن وتغني رغم الفاقة والاحتلال ورغم بطالة زوجها المغتاظ .

بيرزيت في29/11/2002

■ ■ ■

● مشاعر غير وطنية

لا أدري إن كان من المتاح التعبير عن مشاعر غير وطنية ؟! قال أحمد لصديقه لاذع التعليق منصور، فأجابه: لم أسمع في حياتي عن مشاعر وطنية وأخرى غير وطنية !! فماذا تقصد بذلك، أفصح يا فصيح ؟ قال أحمد: إنني الآن في حالة من الخذلان الذاتي والإحباط والانهيار تجعلني أتمنى مفارقة وجودي الحالي و الوجود في مكان آخر ومكان آخر بل وجسد شخص آخر..... علق منصور: ما زلت لا أفهمك . قال أحمد: إن حالة الخذلان الذاتي فيّ قد أراها في طغيان لهمّي الشخصي الذاتي الآني القريب على همي البعيد الآجل، على همي والمجموع، على همي الوطني لدرجة تجعلني أتمنى الحل السريع لرعب الحالة، وفشل الحالة، وسقوط الحالة التي أعيشها ولو على حساب ما يراه البعض قيم التأصل والقومية والولاء و التجذر و الانتماء الوطني الضرورية ؟

قال منصور: تابع ما تقول، وكأنني في بداية الإمساك بخيط فلسفتك الخذلانية الجديدة ..فتابع أحمد بحذر وهمس: هل تتصور نفسك فرنسيا أو بلجيكيا أو حتى من مواطني بوركينافاسو ؟؟ قال منصور: لم أفكر بهذا الأمر سابقا، وما علاقة ذلك بما تقول يا رفيق المآسي ؟؟! فاستطرد أحمد مكملا فكرته: وهل ترى مجموع الهموم والمآسي التي تحيط بأفراد أي من هذه الدول توازي دموعا سخية ذرفتها أنت أو أنا على عزيز، كتلك الدموع التي سقطت على قبر ابنتي عائشة ذات السنوات العشر، أو على تسامي ابن عمك خالد الذي اخترقته الرصاصات في كل المواضع حتى جعلت جسده الطاهر الحي كالمنخل ؟ وظل منصور صامتا يستمع فأضاف أحمد قائلا: ان خذلاني الذاتي حرارة فقداني لقدرة التحمل وانكسار كتفيّ من تراكم الهموم والغباش والضباب، وانفلات نفسي من بين أصابعي ... لقد سقطت عائشة في عشر ثوانٍ طويلة طويلة، وسقط لي معها أجمل عشر سنين عاشتها أو عشتها وإياها مترفقا متدفقا متحلّقا محتفيا بالدقائق والثواني معها، بقذيفة دبابة وما أدراك ما قذيفة الدبابة، سم قاتل وقبر متنقل وجزع متصلب، بترت القذيفة قبلاتي والحنين عن جبين عائشة الوضّاء، و أحالت ابتساماتها إلى ندرة، وجعلت من مسار أصابعي خلال شعرها الأسود الفاحم الناعم الثري الطويل كممرات في رمال صحراء هبت عليها الريح ... لقد تحولت عائشة قمرا لكل الناس، وحرموني لذة الحوار و"الملاغاة" معها والخرير . لقد طوّر المصنّعون القذيفة بعقل لا إنساني ونفسية وحوش حتى تقضي في عشر ثوان على حصاد سنوات قصرت أو طالت، وكي تنثر غبار الروح على مساحات الجوى وقيد القلب، وركّبوا في القذائف مركّبات لا تقتل الشخص المستهدف فقط، وإنما كلَّ من يمتلك بين جوانحه ذرة حب أو عطف أو إشفاق، أو بسمة أو تقارب مع القتيل .

يصرخ منصور بهمس فيبدو صوته كالمبحوح: رويدك يا أحمد تمهل ولا تسرف في الوصف وكأنك ترثي نفسك ؟! ونحن لسنا في مكان يتحمل تدفق المشاعر، بل إنه اللامكان أصلا ؟! انهمرت الدموع من عيني أحمد جدولا يحفر

أخاديد في صخر صلب لين رفيق، وكاد يشهق "و يتشغنف"، ولم يستطع مسح الراحة المفقودة براحته، أو القبض على عين الفجيعة! فزحزح قعدته البائسة قليلا كي يخفف من ألم القعود الطويل، وقال: ومالي لا أرثي نفسي بل وأصيح وألطم، أفي ذلك عيب، أم أنه حرام، أم أنك ترى في وضعنا الحالي ما يُفرِح، أم أنه من المكتوب علي – توقف للحظات ريثما تمر الجلبة القادمة ومثيروها من السجانين الساخرين، ثم أضاف– و مكتوب علينا كفلسطينيين، ألا نبكي وألا نرثي وأن نكذب ونكذب ونكذب القول أننا شعب الجبارين الصامدين، المرابطين!! ونحن في الحقيقة شعب المساكين الصابرين الضعفاء، المخذولين، الباكين إننا شعب الخطوط المرسومة في خد الصحراء وصدرها لا تلبث أن تتلاشى بنفخة واحدة، وتُنسى ... إننا شعب الجيلانية والرفاعية والخلوتية من الطرق الصوفية ذات المناسبات والأيام المحددة في السنة التي تُدَق فيها الطبول، وترفع فيها الأكف والوجوه الضارعة إلى السماء، وتُقرأ فيها الأدعية، وتتحرك فيها الأجساد بتناغم لا يلبث أن ينقطع، ثم ينفض الطقس ويُنسى ... إننا منظرٌ كريه، وصورة غير مستحبة، وقلق يطل يوميا من شاشات التلفزة، يتهاوى ... وذكرى لا يحب أحد أن يستعيدها فيقفل "صواميل" عقله ... قال منصور: هاأنت ربطت نفسك بالمجموع، وكدت بالبداية أن تعبر عن ذاتية طاووسية خذلانية طاغية ؟

قال أحمد: لم أستطع ... صدقني، عند هذا الحد، أي حد القتل وحد العذاب وحد الفقدان وحد الريح وحد الروح، لم أستطع أن أنفصل عن شيعتي وأهلي، عن بني وطني وأمتي، وكأن ذوباني في الذاتية هو إغراق في الوطنية، فكل فلسطيني مهما تمرد على ذاته وهاجمته مشاعر غير وطنية لا يلبث أن يتذكر أنه فلسطيني الذات والمجموع. قال منصورها أنت تعود للحديث عن المشاعر غير الوطنية، في هذا الموقف المعادي الذي نحن غارقون فيه؟! قال أحمد: نعم ذكرتني – وأخفض من صوته لسماعه قعقعة سلاح قريبة، ثم واصل قائلا – لقد قلت إنني بخذلاني الذاتي تتطور لدي مشاعر غير وطنية، أي مشاعر الإحساس بنفسي في موقع الآخر وفي بلده وفي بيته ومع زوجته وبين

أولاده، وربما في سجنه أي الآخر، غير الفلسطيني، فأحلم وأنا يقظان بما يسر ويفرح، ولا تلبث أحلامي هذه أن تتلاشى عند سماع صوت مكبرات الصوت الصادرة عن دبابات المغول الجدد، حين يفرضون حظر التجول وحظر النظر من النوافذ وحظر العويل على الأموات وحظر الكلام وحظر التنهد وحظر السهر وحظر التنفس أو شرب "نفس أرجيلة" وحظر التغزل وحظر الانبعاث تجددا يوميا، وحظر التفكير السوي، وحظر الحياة، وحظر الثرثرة واختلاس النظر للجميلات الرائحات الغاديات في الشارع المتسخ ببقايا هدمهم وقصفهم واحتلالهم، وحظر لعب الورق في مقهى متواضع قرب محطة (التاكسيات) .. ويستنشق منصور هواء يظنه صحيا بملء رئتيه من نسيم ربيع تمنى أن يكون ربيع قريته برقين الجميلة الخفِرة الوادعة من قرى مدينة جنين، ويقول بصوت يشبه الهمس: لا أرى ضيرا أن تحلم وأنت يقظان، ففي ذلك راحة وفسحة من الوقت تتخفف فيها من ضغوط الحياة العادية، وتلك الحياة غير العادية أي من الاحتلال الرطب العفن القاسي الدنيء الفاسق الفعل .

قال أحمد: أرأيت !! لقد قسمت أنت الحياة إلى قسمين، حياة عادية وحياة غير عادية، وهي عندنا كذلك وليست كذلك في بوركينافاسو مثلا، والحياة الأولى نتشارك فيها مع العالم كله أما الحياة الثانية فهي في هذا العصر باتت مخصصة لنا فقط، فقد صُبّت علينا كالزفت المغلي، وجردتنا من كثير من أحاسيسنا العادية فأصبحنا حتى عندما نتمنى العيش كالآخرين نظن في هذه الأحلام مشاعر غير وطنية أو أحلاما سقيمة أو سرية أو تستدعي العقاب ؟؟

قال منصور: لم أشعر للحظة أن مشاعرك غير الوطنية هي كذلك، بل شعرت أن خروجك من رداء الوطنية المؤقت بالخذلان الذاتي كما أسميته فترة إعادة تهيئة مطلوبة ليس إلا، وما أنت إلا (حمار) مع الاحترام الشديد، لا يستطيع التخلي عن بردعته ولا عن برسيمه أو عصا صاحبه مهما غلظت أو استدقت !؟؟

كان الصديقان المحاصران بدبابات وحقد، ومدافع وعنصرية، ودوريات وشوفينية العدو يتحادثان موثوقي الأيدي ومتجاورين في معتقل (عوفرة) القريب

من مدينة رام الله، إثر اعتقالهما بحملة من حملات المداهمة الشرسة التي طالت مدينة جنين وكل فلسطين، وجمعت في السجون أكثر من عشرة آلاف معتقل . يجلس أحمد على آليتيه مقيد اليدين إلى الخلف، معصوب العينين مع عشرات من المعتقلين بأعمار متفاوتة و ذلك على أرضية مربض دبابات في برد شديد، وهواء قاطع كالسيف..يتجمع التعب في ظهره المنحني، وينتقل رويدا رويدا إلى آليتيه فيحاول الحركة ببطء وتثاقل شمالاً أو يميناً عله يتحصل على قليل من الراحة . تضغط الأصفاد البلاستيكية المصممة لإحداث كثير من الألم في وقت قصير على معصميه فيعود ليتمنى أن يكون مواطنا غير فلسطيني حتى لو في جمهورية (ناميبيا) التي لا يعمر فيها الانسان أكثر من 40 عاما في المتوسط . لقد كان الحديث يدور بين الرفيقين همسا وأحيانا دون صوت بل عبر التخاطب الذهني ... ومع صوت المطر الثقيل المتساقط يقبل أديم الأرض، أصبح للحديث متعة الجلوس في دار للخيالة (السينما) حيث الصوت طاغ كما صوت المطر والريح، والذي يحاول جاهدا أن يتغلب على صوت حركة الدبابات ومدافع المغول .

أحمد ومنصور ومثلهما المئات كانوا من سجناء الانتفاضة الأولى، فلم يكن للقاء الشائك مع ضابط المخابرات إلا تكرار لخبرة سابقة، وتجربة جديدة للضابط الذي يحاول تطبيق ما درسه مع مجموعة متمرسة في التعامل معه . لقد كانوا يقطعون سكون الليالي الباردة والمظلمة بالأحاديث والفلسفات والذكريات دون أن يلتفتوا لرؤية كل منهم الآخر في تعابير جبينه وحركة عينيه واعتصار وجهه، يتحاورون بصوت خفيض لا يعلو إلا مع هطول المطر وصوته المزمجر فوق " شينكو" المربض مربض الدبابات الذي تحول إلى مركز توقيف مفتوح، ما يلبث أن تنخفض أصواتهم حتى تجاري حفيف الشجر خشية صرخات الجنود وتهكماتهم وضربات أعقاب البنادق . يتحاورون اختراقا للزمن البطيء، وعبث الأمة، وانتظارا لغرفة التحقيق .

في غرفة التحقيق يزيل الجندي العبوس القمطرير العصابة عن عيني أحمد، فيصعق مدهوشا !! ويلاحظ ذلك الضابط الكبير القمطرير أيضا بل وأفراده وجنود الحراسة في الغرفة ... يبتسم الضابط مكشرا عن أسنان ناصعة البياض تلفت انتباه أحمد لدرجة تمنى لو عرف نوع المعجون الذي يستخدمه هذا الضابط، فتغيرت دهشته إلى ابتسامة . ضمّ الضابط شفتيه ونظر في عيني أحمد متجاهلا ابتسامته قائلا: لك أن تعترف بما نعرف، أو نقذف بك في سعير جهنم !! عاد أحمد إلى حالة الاندهاش مرددا في صمته بصوت يكاد يفجر الغرفة: من أنتم ؟؟؟ وأين أنا ؟ لست موجودا في مكاني، إنني في مكان آخر لا أعرفه.... يستطرد المحقق ما بدأه قائلا: إن الصبيّة التي تم اغتصابها من قبلك وجماعتك قد اعترفت عليكم وتعرفت عليكم واحدا وحدا أيضا فلا داعي للإنكار يا شطار.. مازال أحمد مدهوشا ومحدثا نفسه: أي صبيّة وأي اغتصاب، يا لطيف دخلت المعتقل كسجين سياسي ومناضل شريف وسأخرج منه داعرا أخو"......"، لا لا يمكن، مَن هؤلاء ؟؟....إنهم ليسوا يهوداً أصلاً ؟؟

هل يتحول خذلاني الذاتي و إحباطي ومشاعري غير الوطنية بالانخلاع عن بلدي إلى حقيقة، وبهذه السرعة ... كيف أكون جالسا على رصيف بارد والآلام تهاجمني بكل جزء من جسدي ثم بقدرة قادر أُنتزع من أحلامي و حقائقي الصاعقة الماحقة البائسة إلى ما لا أعرف ؟؟! وفي مكان وزمان ليسا لي ... هذا ما لا أفهمه، بحق السماء من هؤلاء؟؟!... عاد الضابط العبوس القمطرير الذي يتسلى بهراوة كبيرة بدائية في يديه ليقول بصوته الأجش: أنت تعلم أننا نستطيع الحصول على الإجابات بسهولة انغراس الإبرة في أصبع الموز، ودون أدنى تعب، فإما أن تسهلها على نفسك وإما تصعّبها .... أين أنت يا منصور، أنقذني بالله عليك، صرخ أحمد دون أن ينبس ببنت شفة وواصل حديثه الذاتي: هل هؤلاء من يهود الفلاشا ؟؟ لا .. إنهم أشد اسودادا وظلمة، إنهم أفارقة أصلاء، وما أظن في إفريقيا يهوداً من غير العرب و الفلاشا ؟؟ إذن من أين جاء هؤلاء ؟؟ أو كيف أصبحت بين أيديهم ؟؟ يا الله !!

أستظل ممتنعا عن الكلام مكابرا معاندا يا مجرم ؟! قال الضابط الأشِر، وأحمد مازال مذهولا مندهشا وكأن شفتيه قد تعلقتا بحبال، ليعود الضابط ليصرخ: أليس اسمك أحمد أيها المسجون... تنبه أحمد لوقع اسمه الملفوظ بشكل غريب من شفتي الضابط الكبيرتين كأنهما رطل، فأفاق من ذهوله وقال: هل من الممكن أن تفكوا قيدي فلقد أدمى معصمي ... أشار الضابط لجنوده بالموافقة، ولم يستطع الجنود فك القيود فلا أقفال ولا مفاتيح وإنما عقد بلاستيكية غريبة وشديدة فُكّت بصعوبة بعد أن حاروا وهمهموا في أمرها مما أثار الضابط، الذي بدأ يصرخ عليهم فقالوا له أن نوع القيود جديد عليهم ؟؟ فما تلقوا سوى الشتم والتحقير ... قال أحمد بعد أن فكت قيوده واسترجع يديه: هل لي بسؤال ؟؟ ولما لم يلقَ اعتراضا قال: أين أنا ؟! أكاد أجزم أن في الأمر لُبسا مكانيا؟! قال الضابط ساخرا: وماذا تعني باللبس المكاني، أيها السجين ؟ قال أحمد: من المفترض أنني في أحد معتقلات الاحتلال الإسرائيلي في فلسطين، ولكن في هذا المكان لا يوجد ما يدل على ذلك البتة ! وأنتم لستم بمن عهدت ؟! تفاجأ السجانون والضابط أجش الصوت القمطرير فأخذ يدور في الغرفة مقهقها، ثم صمت وقطب وقال: أي إسرائيل وأي فلسطين!! لابد أنك مصاب بفقدان الذاكرة أو تدعي الهبل أوالجنون ...إنك هنا غير بعيد عن مكان ارتكابك وصحبك الجريمة ؟! صاح أحد الجنود: سيدي، إن القيود البلاستيكية التي نزعناها والعصبة على عين الرجل ليستا من عندنا ! إن القيود مصممة لكثير من الألم والوجع من النوع الذي لا نمتلكه بعد ؟! قال أحمد في نفسه: هل يقصد فيما لا يمتلكه بعد نوع القيود أم نوع الألم ! ثم أضاف ربما يقصد الاثنين ! وأضاف جندي آخر: والجميع بالخارج مقيدون بغير هذا القيد الغريب ؟! وقع الضابط ذو الشفاه الغليظة كالآخرين في حيرة كما هي حيرة أحمد .... قام يتأمل السجين أحمد مليا وأحمد يتأمله والاثنان يشعران بالغربة..قلت لي أنك فلسطيني وتظن نفسك في أحد سجون الإسرائيليين، أردف الضابط ليرد عليه أحمد: هكذا من المفروض ... فلقد تم اعتقالي من قريتي برقين قرب جنين

قبل أيام ونقلت إلى معسكر (عوفرة) قرب رام الله ... والآن لا أعرف أين أنا، وكأنه وقع تبادل أسرى مع دولة إفريقية أنتم تمثلونها ؟!

ظهر الضابط (موشيه أيهود) وسط الغرفة من الفراغ، وانتزع أحمد من أحد سجون العاصمة (البوركينافاسية) الإفريقية وعاد به مقيدا معصوب العينين إلى مريض الدبابات ... ليستمع أحمد إلى صديقه منصور وهو مازال يتكلم همسا وكأن شيئا لم يحدث: قلت لك يا احمد إنك بانفعالاتك ومشاعرك اللاوطنية كما أسميتها تعبر عن حالة قرف من الاحتلال، ورغبة في التحرر إلى الحد الذي يجعلك تتمنى ألا تكون فلسطينيا طريدا أو أسيرا أو شهيدا، وألا تكون جبارا أو مرابطا وأن تكون في أي مكان غير هذا المكان ... فصاح أحمد فزِعا: لا لا لا، سأظل هنا وفي هذا الحيز المكاني بالذات ما دمت حيا وحين أموت، فهو مكاني وما ألِفته وهو حياتي وما بقي من روحي. ... ومهما عانيت من الخذلان والوحدة أو الإنكار من القريب والبعيد، وأظل أقارع (موشيه أيهود) ورصاصاته ونازيّته، أو غيره، ولن أبرح برودة العظام وتهكماتك، و برقين، والقيود البلاستيكية الجديدة، ودم عائشة، وحتى مشاعري غير الوطنية أحيانا والأنين، ونور الثرى المقدس . فضربه أحد الجنود الإسرائيليين المسربلين بالحديد والنار بعقب بندقيته على رأسه فشجه و أدماه، وما زال المعتقلون والأسرى بالآلاف يئنون وحدانا .

رام الله –فلسطين 2002/9/21

■ ■ ■

• أتكلم فيكم فيما سمح لي من وقت !

في وضح النهار من ظهيرة يوم 2002/12/26 قامت عصابة من الإرهابيين اليهود وهم يتخفون بزي عربي بإطلاق النار على أجساد ثلاثة من أبطال الانتفاضة في وسط مدينة رام الله فاستشهد اثنان وجرح الثالث، ومن الشهيد الأخير وصلتني هذه الرسالة ... بكر أبوبكر

كنت أنزف دما على قارعة الطريق، وسط المدينة في رابعة النهار ...سقطت، لم أستطع أن أرفع صوتي، ولم تخرج من فمي آهة واحدة، سقطت برصاصات مدوية أصابت سمعي قبل أن تمزق فيّ الفؤاد ....نعم هناك حيث يتجمع عدد من ممتهني تغيير العملة الحالمين بالثراء منذ عقود، وحيث استقر منذ بدء الانتفاضة بائع للكعك وآخر للسحلب وأيضا عدد من باعة الملابس والأحذية والألعاب الصينية الرخيصة...كان الموت .

هناك بالضبط سقطت، هكذا مرة واحدة، كحصان عليل، أو ورقة حظ تالفة، أو خاتم ذهبي، ولم أظن أنني سأسقط ذات يوم وبهذه الطريقة .

في اللحظات الحاسمة بين الحياة والموت سمعته يقول بعبرية حاقدة: خذها في صدرك في رأسك في شتى أنحاء جسدك... عدد من المسامير القصيرة المتينة الصلبة الساخنة اخترقت جسدي متتابعة، كان إحساسي في الطلقة الأولى حادا مركزا شديدا ... وخز أليم أعاق في فمي الصرخة فلم أستطع التفوه بكلمة ...لا إله إلا الله محمد رسول الله.. هذا أول ما قلته في نفسي ... ثم تتالت الرصاصات لتخترق الجثة بسهولة انغراس السكين الحاد في الجسد الطري .

تجمع الألم في البداية في صدري ... ضخما صعبا كبير الحجم حتى كأنني أحمل جبلا، حائطا، مدينة، ثلاث سماوات، جملا، قافلة، انتفاضة، أكداسا من العيون، دمع أمي، آلاف المصاحف، أكواما من الأيادي المقطوعة .... أحسست أن زرافات من الناس تعدو فوق قفصي الصدري ...هكذا أحسست ثم سرعان ما غبت عن الدنيا .

كنت أنظر إلى جسدي وسط الشارع المبلل بماء المطر، أمام البنك العربي في ساحة المنارة في مدينة رام الله.... وإلى جانبها بركة من الدم يشاركني بها زميلان لم أعلم هل قضوا أم قدرت لهم حياة بعد حياة . في انغراس الطلقة افتقاد للكثير من الصور التي تجول في لمحة بصر تلخص تاريخا ابتدأ مع صرخة الولادة الداوية إلى صرخة الموت بلا صوت ... تقولون إن الاحتلال

يحرم الناس الفضاء والحياة والهناء وتشابك الأيدي والألفة والسعادة، وأقول إنه يحرمهم حتى الصرخة ... لم أستطع أن أصرخ حتى في وجه ذاك اللئيم الذي مزق جسدي وأهان سمعي . مددت يدي لا أدري لمن ؟! ولماذا؟ ولكنني مددتها... لقد داسها الإرهابي اللئيم المحقون بسم الحقد والعنصرية وأفرغ ما تبقى من مسدسه في رأسي .. لم أرتبك ولم أحزن، بينما الناس يتراكضون ويصرخون ... لقد تمنيت أن أصرخ: وا أخاه، وا أماه، وا أختاه، وا أمتاه ... ليس لجبن مني أو ضعف أو مهانة أبدا، كنت أريد أن أصرخ كأمنية أخيرة للميت، كحق لي، فللميت أيضا حقوق ... أعبر فيها عن آخر ما سيقوله قلبي ولساني...

ظننت أن شفتيّ قد انفرجتا قليلا وعينيّ تسمرتا في وجه طفل خالد كان يتستر داخل دكان في مدى بصري ...لقد أسقطتُ عينيّ على وجهه، رأسه، قميصه، بنطاله حتى أخذ يتحسس جسده من أسفل إلى أعلى ... الناس يتراكضون فرادى وجماعات، وطفلي العسليّ يتحسسني بصرا ساقطا وظِلا منعكسا وروحا تشربها من عيني عبر جسده الصغير النحيل المبارك .

أصدقكم القول أن مما أزال انشداهي وألمي بعد الرصاصة الخائنة الأولى هو موتي وصورة الطفل آخر ما انطبع في بؤبؤ عيني، ورؤيتي له وهو يمد يده محاولا إسعافي، انتشالي، مساعدتي على الصراخ، الدفاع عني؟! ...كادت تنفلت مني شخرة، آهة، ابتسامة، ولكن الرذيل اللئيم المحقون بسم الحقد والنازية ركل وجهي بقدمه وكأنه شاهد تواصلي وطفلي ذاك هناك يمد يده باتجاه جلادي على شكل مسدس، ويحدثني دون كلام ...نظرة واحدة قبل الرحيل كانت كافية لاستجمع شطآني وبحوري وظلالي وبصري إلا ما علق على جسد الصغير .

جالت في خاطري والموت يسحب روحي قطرة قطرة ثم دفقة واحدة، ملاعب الأمس وضحكات النوى، ووجهها هي، وعيون الدوري والحمامات في قصري، وارتطام جسد ولدي بالحائط، وصراخ ابنتي حين أبصرت النور، وأول قلم حبر أهداني إياه والدي، وساعة كانت بيد جدي أورثنيها فبعتها لأشتري دراجة، وعيون ساخنة وأخرى زلقة وثالثة ناتئة ورابعة مرعوبة وخامسة حاسرة وسادسة

ملعونة وسابعة شفوقة وثامنة ودودة وتاسعة واسعة وعاشرة ذات حسد، مما مر عليّ من عيون الفاتنات وعيون الرجال ... قد تقولون كل هذا في لحظة قصيرة سبقت انسحاب الروح ؟! فأقول: واكثر من ذلك من مما لم أعد أذكره اللحظة لأنه رجح لدي أن من كرامات الشهداء أن يريهم الله ما يريدون قبل الرحيل، وأن يروا – ما رغبوا– أحب ما عاصروا في الثلث الأخير من اللحظة الخاتمة للأعوام المقدرة . فتكلمت فيكم خطيبا فيما سُمح لي به من الوقت .

على قارعة الطريق وتحت المطر في برد شتاء عاصف... لوحدي وزميلين وبركة دماء لزجة مقابل عصابة من المهووسين، عصابة من القتلة اليهود لفظت إنسانيتها... كنا نتعارك !! هم برصاصات الموت الغادر والسم القاتل وغطرسة الوحوش، ونحن بحب الله والناس و الطين والسماء والحرية، والشوق إلى الشعور الطويلة واليدين المخضبتين، وسهر الليالي وعبير الغاديات، ولعب الأطفال، وطعم الهندباء وأقراص السبانخ، والزعتر، وتنهدات المراهقين، وضيق صدر الكهول واكتواء القلب بحب لم يسبق له أحد .... تخضبنا نحن بالدماء، وسقطوا هم فـ امتحان الانسان .

قد أكون أطلت عليكم، ولكنني الشهيد العتيد الحي المجيد الكريم الأكرم منكم جميعا كما تقولون ..أفلا تسمعونني فيما صُرّح لي بقوله قبل الغياب..وأنا ممدد هناك كانت دموع أمي تدفئني، والبرد القارس يخرق أعضائي، والدم يبلل وجهي و فراشي وحبات المطر .... وما ارتجفت ...

قد أكون كذبت عليكم حين قلت إنني لم أحزن ... أبدا! لقد حزنت ليس من أي منكم معشر الأحياء، بل من نفسي ؟! لأنني لم أكن احتفظ بمسدس أوجهه للصّ العيار الذي سرق مني الأيام والآمال والمآل دون إرادتي، وأحسست بالقهر الشديد والضيق الفظيع لأنني قتلت غدرا،غيلة، مداورة، دون إعلان حرب، ودون خلق، دون قدرة مني على المقاومة ودون تكافؤ ودون بصر ودون أن أنبس بكلمة... لقد أطلق اللئيم النازي الرصاص عليّ من الخلف ثم أفرغ سمّه في شتى أنحاء جسدي الفاني، لم أحزن من فناء واقع وإنما من واقع أفضى إلى فناء دون أن

أستطيع إجالة النظر الحسير فيما فاتني، أو أن أصرخ علّ من هو جالس هناك في المحيط يرفع بصره ولو للحظة عن مائدة أو فرجة أو لهو أو شهوة أو كذبة أو حياة غير مغفورة ودنيا عابرة متمهلة.

أنا الشهيد الأخير هذا اليوم -ربما-، وتكلمت فيكم فيما سمح لي به الوقت لأقول دون انتظام أو بهرجة أو تزويق أو رتوش ما ظننت أنكم لم تسمعوه... فهلاّ دفنتموني جوار أخي الشهيد البطل المقاوم لطائرات و لدبابات القتلة الفاشيين حينما همت بدخول مدينة جنين فالتصق بأرضها إلى الأبد ... هذه وصيتي إليكم، واعذروني إن أطلت عليكم، فهذا ما كان والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

■ ■ ■

الكاتب في سطور

- بكر محمود أبو بكر - مواليد فلسطين عام 1960، تخرج في العام 1985 بكالوريوس هندسة مدنية.
- شارك في عدة حلقات ودورات مكثفة فكرية وإدارية ونقابية وسياسية .
- عقد عشرات الدورات لكوادر تنظيمية وجاليات فلسطينية في مختلف التخصصات الإنسانية في فلسطين وخارجها.
- رئيس الاتحاد العام لطلبة فلسطين في الكويت 1984-1986 .
- عضو لجنة إقليم (قيادة) حركة (فتح) بالكويت 1987-1991 .
- عضو المجلس الإداري للاتحاد العام لطلبة فلسطين منذ عام 1990 .
- عضو المجلس الوطني الفلسطيني .
- مسؤول الدراسات والدورات في مكتب التعبئة والتنظيم لحركة (فتح)، تونس 1991-1996 .
- نائب المفوض السياسي العام. مسؤول مدرسة الكوادر في التوجيه السياسي والوطني في فلسطين منذ عام 1996 .
- عضو قيادة حركة فتح في الوطن (التعبئة والتنظيم) منذ عام 2002 .
- له العديد من الدراسات والأبحاث والكتابات المنشورة في الصحف والمعتمدة للدورات المختلفة .
- مفكر وكاتب، كتب في عدد من الصحف داخل فلسطين وخارجها مثل: الحياة الجديدة، فلسطين اليوم، وطني، الجريدة (الإلكترونية)، الانتفاضة ، الكرامة، الدستور .

صدر لـه:

- الدراسات والكتابات:

- مفاهيم لا بد منها - عناة للطباعة والنشر - رام الله 1997 .
- تحقيق الفوز في قيادة الحملة الانتخابية، الاتحاد العام لطلبة فلسطين - 1990.
- مبادئ المسؤولية التنظيمية - عناة للطباعة والنشر -1998 .
- كيف تقيم معسكرا؟ - التوجيه السياسي -1997.
- التفكير في حركة (حماس) - مدرسة الكوادر -1998 .
- حركة (فتح) بؤرة الإبداع والتميز -مدرسة الكوادر -1998.
- التنظيم والفكر السياسي .
- التنظيم الذي نريد ..... (وغيرها) .

- النتاجات الأدبية:

-لم لا! (مجموعة قصصية) - دار الزاهرة -2000.
- برق مقيم (نصوص) - دار خليل الوزير -2003.
- في الزمن الواقع بإمكانكم أن تطيروا! مجموعة قصصية وأشياء أخرى .

المحتــويات